عيون العاشقات

محمد حسن الحفري

عيون العاشقات

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

-٣-

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورة**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

قصص

« الإهداء »

إليكن شقيقاتي ، وغزالات الروح الشاردة في الفيافي

«وداد ... فاطمة... مريم»

وقد استطابت أولكن نومة اللحود ، وفرت الثانية

مع المسافات

والثالثة ترقب بحزن من طاقتها في الشام تلك الهوة وذلك الاتساع الرهيب.

إليكن ولصباحات كنا نطل فيها على وادي الرقاد ، ومياهه الهادرة التي تمتزج بأجراس القطعان

السارحة في البعيد مع نايات الرعيان ورائحة الزعتر البري والنعناع.

الخروج عن النَّص

كنت أبكي بحرقة وهي ممددة أمامي غير مصدق ما حدث. فأنا لم أتخيل للحظة واحدة أنّني أستطيع العيش من دونها، فهي حبيبة القلب والروح معاً، وهي الوحيدة التي ما اشتهيت العيش من دون حضور سموها وشموخ حضرتها، وهي من كنت أتمنى أن يكون يومي قبل يومها.

رجل عليه علامات الهيبة والوقار، يبدو أنه أشفق على حالي، ورقّ قلبه لي بسبب حزني العميق على حبيبتي التي فارقتني قبل لحظات.

ابتسم في وجهي وقال بهدوء: لماذا تبكي يا أخي؟

قلت: تسألني وكأنك لا ترى ما حلَّ بي.

قال: انتهى يومها.

قلت: لكنّها ذهبت وتركتني وعصف الموت بما تبقى من حياتي. ألا ترى أنني فقدت نصفي الآخرَ يا رجل؟

قال بطريقته الهادئة التي بدأ بها: لا تسرف على نفسك يا رجل. هي مجرد امرأة والسّلام.

قلت بحنق! يا لدمك البارد يا أخي. أقول لك زوجتي وحبيبتي، وتقول مجرد امرأة. يبدو أنّك «غشيم» ولا تعرف معنى الموت، ولا طعم النساء.

بقي هادئاً. لم تثره كلماتي، وبدا كأنّه لم يسمعها حيث قال: ما رأيك أن تعطيها نصف عمرك؟.

نظرت نحوه مستغرباً، وقد صدمني بسؤاله الذي يشبه المزاح، فأضاف كأنه يدرك ما يعتمل في صدري: ستعيش عشرين عاماً من بعدها. إن وافقت على اقتراحي ستنهض حالاً من نومة اللّحود. خذ قرارك بسرعة قبل أن يبرد دمها.

قلت: أنت جاد وتعني ما تقول إذاً؟.

قطب حاجبيه، فأخافتني نظرته، وهو يقول: ليس بيننا معرفة من قبل، وأنا لا أمزح معك، ولا مع سواك.

طأطأت رأسي حتى لا تلتقي نظراتنا ثانية، وقد حسبت أن دموعي قد جفت من شدة الخوف، ثم قلت بصوت خفيض ومرتعش: لو سمحت يا أخي اقسم تبقى من العمر بيني وبينها.

لم يعقب على كلامي ولو بحرف واحد، وحين تلصصت نحو جثمان زوجتي رأيت يده مبسوطة تغطي جسدها من قمة رأسها

حتى أخمص القدمين، وهذا ما جعل أوصالي ترتجف رغماً عني حيث سمعت همسات خفيفة كأن من ينطقها يبث تعويذة سحرية تستدعي الإنصات والخشوع، وما كنت لأرفع بصري لولا أنني سمعت صوت صديقي نزيه وهو يصرخ بي: لا تفعل.

في الحقيقة لم أدر من أين ظهر، ولم أكن قد رأيته قبل ذلك الوقت، وهو يجلس بعيداً عني في زاوية الغرفة، كأنه كان يرقبني، وأنا أبكي فقدان جوهرتي الثمينة.

بحركة رشيقة تكاد لا تلاحظ صار صديقي في مواجهتي، وهو يكرر بغضب كلمة لا تفعل. ثم أضاف: هي لا تستحق لحظة واحدة، فلا تضع عشر سنوات من عمرك سدى. تعقل يا صديقي.

توقف يرقب تأثير كلماته على وجهي، وأردف ما استفز غضبي، وجعل الدماء تغلي في عروقي، وذلك حين قال: هي خائنة. اتركها للموت.

لم أجرؤ على الرد في تلك اللحظات الحرجة، لكنني رغبت أن أحطم وجهه، وألغي ما بيننا من عرى وروابط. قد أحزن عليها فيما بعد، ولكن لا لن أفعل، ومتأكد أن شيئاً من الندم لن يمر

عليّ، أو يراودني، وأنا اكتشف في لحظة متأخرة أنه ليس صديقي وإلا كيف يجرؤ على نعت زوجتي بتلك الصفة؟

بقي الصمت لصيقاً للساني، وخاصة حين رأيت اليد الكبيرة ترتفع عن جسد زوجتي، حينها وجدتني من دون شعور مني أقول: أرجو أن تتابع عملك، يا أخي.

قال صديقي نزيه: إن كنت مصراً على تلك الخسارة الكبيرة، فأرجو أن تغيب عن منزلك لساعات فقط، وتراقب ماذا تفعل تلك المرأة في غيابك.

ابتلعت غضبي، وأومأت برأسي موافقاً على ما قاله، ومتحدياً في آن كي أثبت له أن زوجتي أكبر من تلك الترهات والصغائر التي يفكر بها.

بدا الأمر أمامي وكأنني في حلم يحدث فيه ما لا يحدث على أرض الواقع إذ وجدتني فجأة أقف على نافذة غرفة الضيوف في منزلنا، وزوجتي تجالس صديقي «نزيه». كان وجهها قد عاد مشرقاً، وصفرة الموت غادرته منذ تململت في رقدتها أول مرة مع اختفاء ذلك الرجل الغريب صاحب اليد الكبيرة.

توقعت أن ينجح صديقي نزيه في إخفاء نفسه عن زوجتي، فهي على الرغم من العلاقة الوثيقة التي تربطني به لم تكن تعرفه، ولم يسبق لها أن رأته فيما مضى، وكانت اللقاءات بيني وبينه تحدث عادة في العمل، أو المكان الذي نتناول فيه طعامنا، وهذا ربما ساعده كي يتعامل معها بكل أريحية إذ سمعته وهو يدعي أمامها بأنه جاء إلى هنا يبحث عن الخيول الأصيلة، فهو يحب اقتناءها مهما كان ثمنها، وحين دخلت الخادمة حاملة طبقاً كبيراً من الطعام رفض أن يتناول ولو لقمة واحدة منه زاعماً أنه لا يأكل لحم الخروف، ولا يتناول سوى لحم الغزلان، وعندما قدمت له الفواكه قال معتذراً: إنه لا يأكل سوى فواكه الجنة. ثم رمى للخادمة رزمة من النقود، واستأذن بالانصراف.

اعترضت زوجتي طريقه قائلة: خذني معك، ولا تذهب وحدك.

أدهشتني فعلتها وأثارني قولها أكثر، فرحت أتابع كيف يتصرف.

ابتسم ونظر إليها متمعناً وقال: يسعدني أن تذهبي معي، ولكنني أخاف أن يغضب منكِ زوجك.

قالت: اطمئن من هذه الناحية. لست متزوجة.

قال: كيف غير متزوجة؟ لقد رأيت أولاداً عند مدخل داركم.

ضحكت بدلال وغنج، وقالت كأنها تتخلص من موقف محرج: رحمه الله. ذهب في حال سبيله، وأنا الآن سيدة نفسي.

قال: تنوين الزواج إذاً؟

ردت: أطلب الستر فقط.

قال: لكنني لن أدخل إليك قبل ثلاث، وأرجو أن تعذريني هذه عادتي.

أومأت برأسها موافقة، وبرشاقة صبية مشت إلى جانبه، ثم قفزت خلفه سريعاً على ظهر الحصان الذي راح يبتعد خبباً عن البيت، ووجدتني سريعاً أركب ظهر فرسي وألحق بهما.

وصلت بيت صديقي نزيه، فوجدتها هناك قد بدلت ثيابها، وأخذت راحتها، وحين رأتني تلبسها الغضب كأن ألف عفريت قد ركبها، وخاصة حين بدأت تسألني عن الأسباب التي دعتني للمجيء إلى هذا البيت، ومن أين أعرف صاحبه؟. لماذا أتبع خطواتها كأنني القضاء المتعجل؟. ولماذا أعكر حياتها كلما راقت وصفت؟.

قطع نزيه أسئلتها بقوله: كيف تقولين إنك أرملة، ها هو زوجك حي يرزق؟ هيا عودي معه إلى بيتك.

بقيت صامتة ولم تنبس بحرف واحد. اقتربت منه ورأيتها تهمس في أذنه، وهو يهز رأسه وكأنه يوافق على ما تقوله، وقبل أن أغادر مع زوجتي قال بطريقة آمرة: لا تذهب قبل أن نقدم لك واجب الضيافة. ولما اختلى بي قال هامساً: خذ حذرك. ستحاول قتلك الليلة.

أخذت كلام نزيه على محمل كبير من الجد، فقد خسرت رهاني، ولا أريد أن أفقد ما تبقى لي من عمر قد تقصفه تلك المجنونة في أي لحظة.

مازحتني، وسايرتني كثيراً على الطريق، وقد عادت تلك المرأة التي أعرفها جيداً، وأذوب في حبها، حيث قالت إنها كانت تمزح معي، لتختبر محبتي لها وقدرتي على احتمالها، والصبر عليها.

عند باب غرفتنا الخاصة قبلتني بحرارة، ورجتني أن أجهز الفراش استعداداً لليلة ستهبني فيها ما لم تهبه من قبل، ثم استأذنت مني لساعة من الزمن ريثما تتفقد الأولاد، وتطعمهم، وتغطي كلّ واحد

منهم، وتطمئن إلى نومهم، وبدوري وضعت عدداً من المساند بدلاً مني على الفراش، ومددت الغطاء من فوقها، وأخبرتها أنني سآخذ غفوة قصيرة ريثما تنتهي من أمر الأولاد.

أطفأت إضاءة الغرفة، وخرجت منها متسللاً على رؤوس أصابعي لأرقب من بعيد - حركتها وتصرفاتها.

رأيتها عندما دخلت حاملة كأسين من الشراب، ثم عادت وجلبت باقة كبيرة من الزهر، وعندما تأكدت من استغراقي العميق في النوم أخرجت سكيناً كبيرة خبأتها بين الورود، وراحت تطعن مكاني المفترض بقوة وشراسة. فعلت ذلك وكأنني العدو الذي ما من مناص من الإجهاز عليه، ثم خرجت مسرعة تقصد بيت نزيه صديقي، لكنها لم تكد تخرج من الباب حتى وجدته هناك كأنه كان يقف منتظراً قدومها، وعندها صاحت بصوت مرتفع: قتلته. قتلته.

وضع يده على فمها كي لا يسمعها الجيران ويجتمعون علينا.

كانت تكاد تطير من الفرح، وقد اندفعت تريد عناقه ابتهاجاً لفعلتها تلك، لكنه أبعدها عنه برفق، وفتح الباب وعندما رآني أقف في باحة الدار قال مبتسماً: ها هو حي يرزق، لم تقتليه كما ادعيتِ.

قالت: لقد طعنته في صدره وبطنه كثيراً. أنا متأكدة من ذلك، لكن يبدو أنه بسبع أرواح. خذني معك وخلصني منه.

رد قائلاً: آسف يا مدام لا أستطيع. قلت لك إنني أبحث عن الخيول الأصيلة.

نظرت إليّ ترقب ردة فعلي، فقلت: أنتِ طالق. هيا غادري المنزل بسرعة.

قالت: أحسن. فأنا أكرهك، ولم أعد أطيق العيش معك.

أخذني دور الغضب وتقدمتُ منها ورحت ألطمها بعنف، وأنا أردد: هذا جزاء صنيعي يا ناكرة الجميل.

في تلك اللحظات كنت أريد خنقها، والتخلص منها، وكثير من الأيدي تمسك بي، وتمنعني من ذلك. صديقي نزيه كان ممن يحاولون منعي، وكان المخرج يرفع صوته قائلاً: ليس هذا هو المطلوب. المرأة التي أمامك لا دخل لها، إنها ممثلة بارعة لدورها. لقد خرجت عن النص يا أستاذ.

* * *

«شبوط الفرات»

«أم الكحلة والمراية... ليبلعك شبوط الفرات»(*).

هكذا كانت تردد المرأة «الخمسينية» جوارح العايد، وهي تبكي وتندب فقد ابنتها فطومة التي ابتلعها نهر الفرات في ذات صباح من دون أن يشعر بها أحد، أو يسمع استغاثتها قبل أن توغل في غيابها البعيد.

هكذا فعلت أول مرّة، وهكذا بقيت تفعل طوال سنوات حزنها، إذ يذهب سكان قريتهم، وخاصة في أيّام الأعياد لزيارة المقبرة، وتأتي هي إلى النهر الذي اعتبرته قبراً كبيراً لابنتها المفقودة، حيث ترجوه وتتوسل إليه أن يكون حنوناً على جسد وحيدتها فطومة، وكثيراً ما كانت تجهر برأيها أمام الذين يناقشونها في ذلك الأمر قائلة: أنتم دفنتم أجساد أمواتكم بأيديكم في هذه المقبرة، لذلك تذهبون لزيارتهم، أما أنا فمازلت أبحث عن جسد فطومة التي أتمنى أن يخرجه النهر يوماً كي أدفنها، وأفعل مثلما فعلتم وتفعلون.

(*) أغنية من تراث منطقة الفرات.

أهل تلك القرية يذكرون جيداً ذلك الصباح الباكر حين استيقظوا على نواح جوارح العايد والدة فطومة، وبعد أن عرفوا منها الخبر، راحوا جميعهم يفتشون النهر بحثاً عن جسد تلك الفتاة. هكذا جرت العادة في هذه القرى المتناثرة على ضفتي الفرات، والتي يقسم بينها النهر من حيث التسمية، فتغدو الشامية تيمناً بدمشق لأنها من جهتها، وتغدو الجزيرة لأنها على الطرف المقابل.

يومها بحث أهل القرية الشامية عن جسد ابنتهم حتى مغيب الشمس، ثم تابعوا ذلك في الأيام التالية من دون الحصول على النتيجة المرجوة، عندها كفوا عن البحث عنها مبتلعين غصتهم وخيبتهم والعار الذي لحق بهم إلى الأبد، فالقرية التي لا تستطيع أن تجد جسد غريقها في النهر تصبح مثاراً للتندر والسخرية من قبل أهل القرى المحيطة والمجاورة، فأي فضيلة تذكر لأناس تركوا ميتهم للنهر وأسماكه؟.

كلّ ما استطاع أهل قريتها فعله بعد ذلك البحث والعناء الطويل أنهم وجدوا ثياب فطومة ملقاة على الشاطئ، فجاؤوا بها إلى المقبرة، وحفروا لها، ووضعوا على لحدها شاهدة تحمل اسمها،

ثم رجوا جوارح والدتها أن تتكتم على الأمر وألا تفضحهم، وتعتبر أن هذا المكان هو قبر ابنتها الحقيقي، لكنها أبداً لم تقتنع بفكرتهم، وبقيت تعتبر القبر في مكان آخر، وفي الليالي السود على وجه الخصوص كان صوت جوارح العايد يتسلل من بين البيوت معانقاً الهضاب والسهول حتى يصل إلى ماء النهر، وهي تردد بما يشبه الحداء الذي يقطع أنياط القلب: «يا ولم، يمه تعالي، يمه تعال، وابكي قبال الدار يا شيبي... يا ولم يمه فراق الغوالي، فراق الغوالي، سوا القلب غربال يا شيبي»(*).

كانت تشعر بالندم يفتك بقلبها، لأنها لم تساعد ابنتها الوحيدة، يتيمة الأب فطومة، ولم ترجُ من أجل خاطرها عمها وولي أمرها نايف كي يوافق على ذلك الشاب الذي أحبها وجاء لخطبتها مع أهله أكثر من مرة قادماً من الضفة الأخرى للنهر. كان عمها يتذرع بحجج كثيرة، فمرة يقول: إنه يريدها لأحد أبنائه. ومرة أخرى يقول: إن أهل قرى الشامية لا يرغبون كثيراً في تزويج بناتهم لأهل قرى الجزيرة. وكانت توافقه على ما يقول كلّه.

(*) أغنية من تراث منطقة الجزيرة السورية، يطلق عليه «سويحلي».

ها هي طوال جلساتها عند ضفة النهر تغالب ذلك الندم في أغلب الأحيان. تحاول أن تنتصر عليه بالغناء حيناً، لتنسى ذلك الحيف الذي وقع على ابنتها، وحيناً يغلبها البكاء، فتذرف دموع الحسرة، وتبتلع غصات استوطنت روحها منذ فقدت فطومة، وكي تواسي نفسها وتنسى ما حدث ولو إلى حين كانت تحضر معها الخبز اليابس الذي تفتته وترميه لأسماك النهر من أجل أن تتلهى به كما تعتقد عن جسد ابنتها المختبئ في مكان ما من نهر الفرات، ولم تدرِ أن ابنتها في ذلك الصباح الذي ناحت فيه طويلاً على فقدها، قد خلعت ملابسها عند الشاطئ، وسبحت عارية من الشامية إلى حبيبها على الضفة الأخرى من الجزيرة. يومها كان فرحاً عظيماً قد غمر قلبها وقلب حبيبها، والنهر رجع صافياً متجدداً كما كان، وقد رقصت لفرحتهما أشجار الغرب والطرفاء والأعشاب على الجانبين، وشارك في تلك الفرحة قصب النهر، فتمايل في رقصه الساحر قبل أن يغدو نايات تنفخ فيها أفواه العشاق معلنة رحلة البعد والشوق والحرمان.

مضت أعوام تلاها أعوام أخرى، والمرأة الخمسينية جوارح العايد لا تترك عادتها في الذهاب إلى القبر، والنهر معاً. تجلس عن

المكان الذي غادرت منه ابنتها حين رحلت، وكانت تؤكد أن فطومة لا بدَّ أن تعود لملابسها التي تركتها في هذا المكان، فهي لن تطيق أن تبقى عارية إلى الأبد. هي أمها وتعرفها جيداً حق المعرفة، وفعلاً حصل ذلك حين علمت فطومة ما جرى لوالدتها في غيابها، فرق قلبها وانفطر لحالها، وقررت العودة إليها برفقة زوجها وأولادها، ويومها كاد الفرح يطير عقل الأم، كما كاد يطير على غيابها، وعندئذ راحت تشم رائحة ابنتها وتضمها إلى صدرها وتعود من جديد إلى تقبيلها، ودموعها تسح بصمت على الوجنتين. بعدها أخرجت من ثنايا «زبونها» الذي ترتدي سكيناً حاد النصال، غرسته في صدر ابنتها، ثم مددتها برفق على الأرض، وهي تبكي بحرقة وتقول: آه يا فطومة لو تعلمين كم رشوت شبوط الفرات كي لا ينهش جسدك. نامي بسلام يا حبيبتي. من الآن فصاعداً سيضمك قبر حقيقي.

«شبوط الفرات - القصة الحائزة على جائزة
وزارة التربية - المركز الثاني للعام ٢٠١٨م»

* * *

محطَّات للصَّقيع
من أنت يا امرأة؟

تُجمِّع لهاث روحك تحت هذا اللّحاف، أو مجموعة الخرق التي يتكوّن منها.

تشدّ نحوك أجزاء الجسد المبعثر. تكوّره أقصى ما تستطيع. تتمنى أن تتحوّل نفحاتك الحارة إلى دفء يتقد في عظامك التي يفتك بها صقيع جارف يهز ركبك وأعصابك، ويجعل حياتك خواء لا فكاك منه أبداً، تحاول معها أن تكون صفراً، أو نقطة لا تبين على السطر، وامرأة لطخ السَّخام وجهها ويديها تدور حول مدفأة الحطب كأنّها في رقص بدائي يشبه حياتنا التي نعيش استجابة لرغبة من أعادنا مئة عام إلى الوراء.

تضع على النار طبختها اليومية وإبريق الشاي. تنفخ في بابها، فيصدم الدخان عينيها ووجهها. تضغط صدرها. تتنفس بصعوبة، ثم تتحشرج في سعال كأنها تتعثر به قبل الموت. يملأ الدخان جسدها، ويتعشق شعرها، فتنهض لتلاحق الأولاد، تسب هذا وتضرب ذاك لاعنة حظها التعس الذي جمعها بك.

تعود لنارها وقد خف غضبها قليلاً. تتذكّر أنّك لازلت هنا، أو على قيد الحياة. تسألك إن كنت بخير، أو تحتاج إلى شيء ما، وقبل أن يسمح لك اصطكاك أسنانك أن تجيب، تجيب بدلاً منك وتتابع شكواها من حياة ارتبطت بهذه المدفأة، وغدت النار محورها الأساسي. تشعر بالألم الموجع وهو يعتصر روحك، وحينها تسأل نفسك: في أي المحطات أنت؟...

كأن لا شيء جديداً يدهشك. أنت فقط أمام مشهد مكرَّر يلازم حياتك، فيشكل صقيعاً كاوياً على الرغم من وجود نار الحطب ودخانه...

لم يتغير شيء سوى أنكم كنتم تقيمون حينذاك في غرفة حجرية مسقوفة بالقصب والطين حيث تتجمع وإخوتك تحت هذا الذي فوقك الآن أو «السمايل» كما كان يطلق عليها والدك.

كان موقعكم في الزاوية الغربية من تلك الغرفة، بينما يتمركز الأب والأم في الزاوية الشرقية منها، ليجمعهما فراش واحد، لا تدخله الزوجة «أمك» إلا في وقت متأخر بعد أن تنهي جميع أعمالها، وربما تكون الراكب الأخير في رحلتكم المترنمة على عويل الريح، وتساقط المطر، وشخب المزاريب.

كنتم تتركون وسط الغرفة للدلف، وهو يطرق الصحون وبقية أواني المنزل المبثوثة لاستقباله هناك.

أيامها لم نكن نعرف الفارق بين الشرق والغرب سوى أننا ننام في الجهتين تاركين الوسط للدلف، ومدفأة تبث علينا الدخان أكثر مما تنشر الدفء.

أين هو الدفء؟. ها أنت قد قضيت العمر محموماً باحثاً عن خدره اللذيذ، راكضاً وراء سرابه من دون تحصيله.

مشوارك طويل ومتعب، وأنا معك إن برد اليوم كان قاسياً، اختلطت أمطاره بالرياح المحملة ببرد ثلوج جبل الشيخ، لكنه ليس أقسى من أيام زمان.

- ها أنت تقولها، فأين أنت منها وهي جميلة على الرغم من قسوتها وصقيعها؟ كنت وأقرانك تخرجون إلى هذه السهول المحاذية لوادي الرقاد. تجمعون زرازير البراري التي حطم البردُ أجنحتها، لتعودوا بها وتضعونها فوق جمر هذه المواقد، وكل واحد منكم يفاخرُ أنه قد جمع أكبر عدد منها، وكنتم تقطعون هذا الدرب الطويل كل صباح مشياً إلى مدارسكم، وكذلك ترجعون. أما اليوم فمشوار وحيد عليه تسبب في مرضك وألزمك الفراش.

- لماذا تريد أن تقنع نفسك أن طول الدرب والبرد الذي تعرضت له هو السبب في مرضك؟ لماذا لا تقر أنها السنين ومعها زهوة العمر قد غدت خلفك؟. لم تترك لك سوى رماد يشبه في شكله ما تسحبه زوجتك الآن من «سكن» هذه المدفأة.

- اسكت ولا تفتح فمك أبداً وتتفوه بمثل هذا الكلام، مازلت في عزي وقوتي والعمر امتداد أمامي.

- هه، قال عمر وشباب قال.

- شاب رغماً عن أبيك، يا بن...

- انتبه، ولا تشتمه، تذكر أنه أبوك أيضاً.

يلزمك الآخر الساكن في داخلك الحجة، فتدخل لسانك إلى جوفك، وتطبق عليه. تنظر إلى جسدك في مرآة نفسك، تتذكر أنك الآن تشبه والدك حين داهمه المرض بشكل مفاجئ وأقعده، ولكن من هذه المرأة التي تنفخ في هذه المدفأة وتكاد أن تكون جزءاً من الدخان المنبعث منها؟ من أنت يا امرأة؟ يكاد لسانك ينطق بذلك، ولكنك تبتلعه من جديد وتصمت.

* * *

كلب أهلكِ...
و«سعدون الهارب»

«كلب أهلك عضضني، وبالساق علم نابو».

كنا نردد تلك الأغنية في النهار، ونحن ننقلب على ظهورنا من شدة الضحك، لكن الأمر الآن وفي هذه اللحظة بالذات اختلف كثيراً، فالوقت قد تجاوز منتصف الليل، وعندما خطوت من فوقه فتح عينيه برخاوة وكسل، ثم عاد وأغمضهما ووضع رأسه بين ساعديه، ورجع إلى ما كان عليه وكأنه بتلك الحركة قد تعرف إليّ، وأعطاني إشارة الأمان، لأدخل منزل أصحابه بكل ثقة واطمئنان. لكن خطوات صديقي سعدون المرتبكة أثارته وجعلته يثب صوبه معترضاً طريقه مثل وحش مفترس. عندها طير الخوف عقله، فركض هارباً بسرعة لا تُصدَّق، حيث استطاع خلال لحظات أن يصل إلى الطريق العام، ويختفي عن أنظار الكلب الذي هز نباحه المرتفع سكون القرية وهدوء الليل.

كنت مجنوناً ومتهوراً في تلك الأيام وإلا كيف أدخل منزلاً من دون إذن أصحابه، وهم يغطون مع أحلامهم بالغلال ومواسم وفيرة؟ كيف أفعل ذلك في غفلة عنهم كي أوقظ ابنتهم من أجل أن تقابل حبيبها؟.

صوت نباح الكلب جعلهم يستيقظون مذعورين من نومهم. خرج الأب أولاً، ثم تبعه الأبناء متسلحين بعصيهم وغضبهم ممن عكر صفو ليلهم. أشعلوا أضواء المنزل الخارجية، وعلى عجل فتشوا الحواكير المحيطة بالمنزل، وزريبة الدواب، وعادوا سريعاً إلى ما كانوا عليه.

دقائق عصيبة مرت عليّ وأنا ألتصق مثل علقة خلف باب غرفة شيخة، حبيبة صديقي سعدون. كان مواراباً، وحين دفعه شقيقها كتمت أنفاسي منتظراً اللحظة التي سينقض عليّ مع أبيه وبقية أشقائه. لكن الحظ كان معي، والله هو الساتر كما يقولون.

في تلك اللحظة بالذات كاد قلبي يتوقف، ولم أكن بحاجة لمن يضربني، أو يشتمني. كنت متأكداً أنني سأموت بمجرد أن يروننني مختبئاً في ذلك المكان، ثواني الخوف كادت وحدها تودي بي إلى

الشلل، وكنت في سري ألعن سعدون الذي جاء يرجو ويتوسل طالباً مني أن أساعده في رؤية حبيبته شيخة ولو لنصف دقيقة فقط، وحين رآني متردداً راح يلح والدموع تنفر من عينيه مؤكداً أنني وقبل أن أرفض، يجب أن أشفق على قلبه والمشقة التي عانى عندما قطع من مدينته إلى هنا مسافة تتجاوز المئة كيلو متر كي يراها.

أذكر أن الحماس قد دق رأسي عندما ضربت على صدري وقلت: ستراها الليلة.

جملة دفعت ثمنها باهظاً، وأنا أنتظر أن ينكشف أمري وأحاسب على حماقتي التي عدت لها بمجرد أن هدأت حركة أهل البيت، وعلا شخيرهم من جديد، حيث تقدمت إلى شيخة المستغرقة عميقاً في نومها مثلها مثل غيرها من أبناء العائلة الذين أتعبهم كد النهار، وأعمال الفلاحة في أرضهم. فركت أنفها بأصابع يدي اليسرى، ووضعت يدي اليمنى على فمها. همست مرتجفاً: تعالي، سعدون ينتظرنا في الخارج.

فتحت عينيها على اتساعهما حين سمعت باسمه، ثم امتشقت قامتها، فبدت مثل رمح ينتصب وسط غرفتها، سرنا معاً وخرجنا

من باب الغرفة. تفقدنا سعدون وبحثنا عنه في الكثير من المطارح التي يمكن أن يتواجد بها من دون جدوى، أو فائدة. بحثنا حتى تسلّل إلينا اليأس من إمكانية العثور عليه، عندها شعرت بالرّمح السائر إلى جانبي وهو ينحني نحوي. شعرت به ينكسر فجأة، عندما راحت شيخة «تنهنه» بصوت خفيض ما لبث أن تحول إلى نشيج بدأ يعلو ويعلو، فعاودت وضع يدي على فمها كي لا تفضحنا في سواد ذلك الليل. لحظتها ارتمت على صدري، وقد انسكبت دموعها الغزيرة على وجنتيها حيث كانت تردّد: هرب سعدون الجبان. أنت حبيبي.

* * *

بيادق عمياء

حين سطعتِ الإضاءة قوية فوق الرقعة لأول مرة سادت حالة من الهرج والفوضى، وحاول الجميع التعرف إلى بعضهم. والدهشة بادية على وجوههم، وكأن كل واحد منهم يرى الآخر لأول مرة.

تدافع الجنديان الأبيضان وقال أحدهما للآخر مستغرباً: أنت ماذا تفعل هنا؟. فرد عليه: كنت أريد أن أوجه لك السؤال نفسه، فأنا في مكاني حيث أنا.

نظر من بدأ السؤال متحدياً، وغير مصدق نحو زميله، فهو لم يغادر مكانه أيضاً. يقترب من الحد الفاصل بين مربعيهما حيث يقول وهما يتدافعان بالأكتاف: لم يسبق أن رأيتك هنا.

فيجيبه الآخر بالطريق المتحدية ذاتها: وأنا أيضاً لم ألحظ وجود أحد غيري، اصطدمت بأشياء كثيرة، لكن الشبه، بيني وبينك كبير، انظر.

يبتعد الجندي الأول قليلاً وكأنه يفكر بالأمر: كلامك صحيح، وأنا في حيرة منذ رأيتك... هل أنا أنا؟... أم أنا أنت؟.

عندها يغضب الجندي الثاني، ويقول بعصبية، وهو يقترب أكثر من زميله: بل أنا أنا، وأنت لا وجود لك.

يعودان إلى حالة التدافع بينهما، ويتصاعد الصراع ليكون أكثر شراسة، ولم يكونا ليتوقفا عن ذلك لولا أن سمعا صوت الجندي الأسود الممدد على الأرض أمامهما، والذي صاح بهما بأعلى صوته: هيه... توقفا عن هذا العراك، إنه يزيد ألمي ألماً.

فاجأهما ذلك، فقالا بصوت واحد: أنت ماذا تفعل هنا؟

رد الجندي الأسود والألم يعتصره: مثلما تفعلان.

حينها سألاه عن الذي فعل به هذا، وعندما أكد لهما أن الأمر لا يبتعد عن أحدهما أو كلاهما معاً، فقد كان يقف مثلهما حين هوت عليه ضربة مفاجئة. وقفا في مواجهة بعضهما وراحا يتبادلان الاتهامات.

- لا بدَّ أن تكون أنت من فعل هذا.

- لماذا لا تكون أنت؟.

- أنا لم أقتل أحداً في حياتي.

- وأنا كذلك.

- عندما جاء الضوء كنت قريباً جداً منه، قل لي لماذا طعنته؟. أمن أجل لونه المختلف؟.

- قلت لك لم أقتله، ثم إن مسألة اللون هذه لم تخطر على بالي أبداً.

- نظراتك الشريرة، وصوتك المعادي يدل على أنك قاتل محترف، جسدك المتحفز دائماً يدل على أن حياتك السالفة كانت مليئة بالقتل.

- أقسم لك إنني لم أقتل. تقدمت في طريقي كما هي العادة، واصطدمت بشيء من دون أن أراه، هل يعقل أن يكون هو من سقط أمامي؟.

وقفت معركة كادت تحدث بين الجنديين حين أقر أحدهما معترفاً بما حدث، وهذا ما خفف من حدة الخلاف بينهما، بل وجعلهما يفكران بأنهما قد قاما من قبل بقتل الكثيرين من دون علمهما، وانتبها من جديد إلى صياح الجندي الأسود وهو يصرخ

من شدة الألم: أرجوكما ساعداني، اصنعا شيئاً من أجلي. تبادلا نظرات فيها كثير من المودة، واتفقا سريعاً على مساعدة الجريح، فهو بأمس الحاجة إليها.

أوقفها صوت الملك آمراً: ابقيا مكانكما، ولا تتحركا.

دار الجنديان الأبيضان نحو الملك وقالا بصوت واحد: من أنت؟.

أجابهما: أنا سيدكما، وسيد هذه المملكة، أنا الملك.

ومن جديد قالا بصوت واحد وكأنهما اتفقا على ذلك مسبقاً: سيدنا!.

مملكة!. من قال هذا؟! ملك.

كان الملك هادئاً وطويل البال، لم يغضب كما عادة الملوك حين قال: هذا ليس شأنكما. عليكما كما على غيركما هنا الطاعة والتنفيذ فقط. لا تسألوا ثانية من أنت، فأنا الذي تدفعون حياتكم من أجله، وموتي هو موت للجميع، وهذا يعني العودة إلى بداية الحياة حيث الفوضى وعدم الاستقرار.

همس الجندي الثاني لنفسه: أفضل بكثير من هذه الحياة التي نعيشها.

هز الملك رأسه مثل الفلاسفة مردداً: لا عودة إلى الوراء أبداً.

راح الجندي الأسود يصيح من جديد: أرجوكما ساعداني، لم أرغب في حياتي إلا في أن أموت واقفاً، ولو أن الموت هو الموت، لكن الموت وأنت عاجز غير قادر على شيء أصعب من الموت نفسه.

رق قلب الجندي الأول، فلكز من بجانبه، وهمس: تعال نساعده، إنه يستغيث ويستنجد بنا.

عرف الملك بذلك، فقال محذراً: لا تتحرك من مكانك أيها الجندي. لا يغاث العدو.

اعترض الجندي الأول: لكنه ليس عدواً لنا، ليس بيننا وبينه شيء.

فأجابه الملك بهدوء: هذا ليس ضرورياً.

بكي الجندي الأسود، وهو يردد: أمضيت عمراً داخل مربعي هذا مثل سجين لا أغادره إلا إلى آخر أشد لؤماً وعذاباً منه.

همس الجندي الأول: أسمع، كأنه يتحدث عني.

فيجيبه الثاني بالطريقة نفسها: إنه يتحدث عن حياتنا جميعاً هنا.

يصغيان السمع إلى معزوفة الجندي الأسود البكائية وهو يرددها قائلاً: لم تنفذا طلبي الأخير، كانت مجرد رغبة، أن أرى مع هذا النور الساطع هذه الأشياء التي حولي، والتي اصطدمت بها يوماً، ولكنني أموت دون أن أصل هذا. أموت في اللحظة التي تحقق فيها الحلم.

يغمض الجندي الأسود عينيه لافظاً أنفاسه الأخيرة. يغضب الجندي الأبيض، يبكي وهو يردّد: لقد مات. ثم يشيرُ نحو الملك: أنت من قتله إذاً؟.

يرد الملك: تقضي الحياة أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، لو لم يكن هو لكنت أنت.

يتدخل الجندي الثاني سائلاً: ولماذا نقتل؟.

فيقول الملك: لأنكم جنود في مملكتي، وهو عدوي وعدوكم. لا تقولا لي ألا أعداء لنا، لا يمكن أن تسير الحياة من دون وجود أعداء.

ينفعل الجندي الأول ويطلب من الملك أن يتقدم ويقاتل أعداءه، لكن الملك يؤكد له بهدوئه المعتاد أن هذا ليس عمله، وعمله هو إصدار الأوامر لمن ينفذها.

يستفسر الجندي الثاني عن أسباب تلك العداوة، ولماذا قتل هذا الجندي الأسود؟. فيرد عليه الملك: لونه المزعج والمختلف عن ألواننا سبب في القتل، إضافة إلى رغبة سيده الملك الأسود في التوسع.

لا تعجب تلك الأسباب الجندي الأول، فيطلب من الملك أن يقتل من يشاء ويعلن باسمه واسم البقية عدم رغبتهم في ذلك.

يغضب الملك للمرة الأولى ويقول: القادة لا يقاتلون أيها الأحمق، إنهم يجلسون في الصف الأخير منتظرين النتائج التي خططوا لها.

وللمرة الأولى يظهر الوزير ويطلب من سيده أن يسمح له بتأديب من تطاول عليه. غير أن الملك يطمئن وزيره ويعود إلى ما كان عليه في السابق، فهذان الجنديان لن يستطيعا فعل شيء طالما أن الجميع هنا تحركه الأيادي التي تريد أن تلعب... تكبر القضية في رأس الجندي الأول، فيصر على فعل ما لا يتوقعه أحد، وما استفزه أكثر قول الملك: لن تفعل إلا ما هو مرسوم لك.

وحين سأله وما ذاك؟ قال: التقدم نحو الأمام فقط.

حينها استدار خلفاً، وراح يتقدم نحو الملك، فحذره من ذلك طالباً منه الرجوع إلى مكانه، وحين رفض ذلك تدلت من الأعلى يد كبيرة حملت الجندي الأول بكل عنف وقسوة، تأوه من شدة قبضتها وتألم، ثم بكي وهي تحمله وتعيده إلى مكانه، بينما تعالت ضحكات الملك وهي تختلط بضحكات أخرى. بعدها ساد الهدوء، واستمرت الأيدي في تحريك البيادق.

* * *

أحمر مريومة

كانت مريومة التي غلب لقبها على اسمها الحقيقي هي نوارة فتيات حارتنا الشعبية، طالعة في طولها مثل رمح، وبهية في طلتها مثل كلّ البلابل التي تقف صباحاً على أعواد التين شادية بلحن الحياة.

نظرة واحدة من عينيها الواسعتين قادرة على إذابة قلوب أعتى الرجال، وعلى فتح كلّ الجروح الدامسة منذ زمن بعيد، أما إذا مالت على أحدهم بخصرها الناحل فلا بدَّ أن كيانه سيترجرج، ويتلعثم معه لسانه، وقد يمضي الليل بطوله وهو يفكر بخصرها حين يغزل أسطورة من تماوج مذهل لا يمكن لصورته أن تزول، وقد شدته وزينته بزنار ذهبي جميل.

مريومة شخصية متفردة وجريئة قياساً إلى نسوة وبنات حارتنا، فأثناءَ سهراتنا، أو تعاليلنا الليلة التي تسبق الزفاف بأيام، كانت هي من يردُ بصوتها على أنغام الشبابة الصادح في فضاءات أحلامنا المزركشة الشفيفة، صاعداً تارة، ومنخفضاً في تارات أخرى، وكنا

نحن الصغار ننظر إلى تلك النخلة السامقة، متمنين أن يصل طولنا إلى مستوى رطبها وهو يبشر ببلح ناضج ليس مثله من بلح.

كانت تلفت انتباه الكبار في السن حين تحضرُ بطلتها المميزة، فينشغلون عن مراقبة الصغار الذين يدخلون أثناء لعبهم في الفراغات التي يترك «الدبيكة» بينهم حين تمتد حلقتهم وتتوسع على طول حارتنا وعرضه، فلمريومة وضع مختلف، وبحضورها يزداد عدد المتفرجين والمنضمين لتلك الحلقة، ولا سيّما حين تترك الغناء مع الشبابة لغيرها، وتتوجه لتقود الدبكة. لحظتها لن يبقى متفرج واحد، بل سينضم الجميع رجالاً ونساءً إلى الحبل المودع، كما يسمونه، وسيشمل ذلك ضيوف الحفل القادمين من خارج الحارة، ومعهم كبار السن الذين اعتذروا مدعين التعب والمرض وعدم القدرة على المشاركة قبل حضورها، فللدبكة طعم آخر حين تقودها مريومة، إذ تصبح منضبطة على إيقاع واحد، في حين تقفز هي وتخطو برشاقة غزال من أول الحلقة إلى آخرها، لتشير بعصاها إلى خلل حدث هنا، أو هناك.

عازف الشبابة، والضارب على الدربكة، أو الطبل يسيران قريباً منها، وعلى محاذاتها، يصعدّان حين تريد منهما التصعيد،

ويخفضان عندما تريد أن تخفف من حمأة المشاركين، ليلتقطوا أنفاسهم، ويأخذوا قسطاً من الراحة حين يقتصدون قليلاً من حركتهم.

تعودنا على مريومة وهي تحادث الجميع من دون تحفظ. تفعل ذلك وصدرها الناهض الذي تفوح منه رائحة عطرها الباذخ يكاد يلامس وجوههم، تسمعهم وتجادلهم، وترد عليهم بصوتها الذي يشلع قلوبهم من أمكنتها. لكن أي أحد منهم لم يكن ليتمادى معها، أو يتجاوز حدوداً غير مسموح له الاقتراب منها، وكان والدها وإخوتها الخمسة يعرفون ذلك، ويعلنونه أمام الملأ، فهي على حد قولهم أخت رجال وشقيقهم السادس.

لم تكن تنزعج من أقوالهم تلك، لكن شيئاً من الحنين والاشتعال ينوسُ في داخلها، ثم يشحب وجهها، وتظهر عليه بقعاً جافة، لا تزول إلا حين تلامس يداها أيدي الرجال، فتبدو ساعتها حمامة ترفرف فوق عشها ساطعة أنوار الصفاء كلّها.

اعتبار مريومة على تلك الحال، وأقوال والدها وأشقائها قد تكون هي من منعت عنها الكثير من الخاطبين الذين يود كلّ

واحد منهم أن تكون حليلة له ومريومته الخاصة، تدفئه بصوتها العذب، ويستمتع بطولها الشاهق وعينيها المدهشتين، ويتذوق رمانها المرصوف بعناية مبدع عظيم، فهي المريودة التي تشبه الغيوث حين تحل على بطحاء شكت من الجفاف طويلاً.

مريومة حارتنا وسيدة الصبايا فيها لم تكن مثلها مريم، أو مريومة، فعندما تعجب بثوب أحدهم وتمتدحه على مسمع من الجميع، فلا بدَّ أن يرتدي مثله، أو ما يشابهه في اللون أغلب شبان الحارة، وحين غنت مرة على صاحب الشعر الطويل، أطلق الشبان خنافسهم حتى وصلت أكتافهم. ومرة غنت على صاحب «الكبوت» العسكري، أو ما يطلق عليه بالمعطف الرجالي مرددة: «يابو الكبوت الجيشي، دخلك قلي بيش اشتريتو، اشترى في اليوم التالي أغلبُ شبابِ الحارة هذا النوع من المعاطف الذي يميل لونه إلى الأخضر «الخاكي» الذي ساد كأفضل «موديل» في تلك الفترة.

آخر مرةٍ غنت فيها مريومة ليلة بأكملها على رجلٍ يضع «الشماخ» الأحمر على رأسه، وفي تلك الليلة بالذات كانت تشد على رأسها «شماخاً» من ذلك النوع واللون نفسه، وحين وصلت بغنائها مردد: «دخلك دخيلك يابو سلك أحمر، ضل بحارتنا دايم

الدوما» خفقت الأفئدة، وارتقت عالياً، لتحلق مع سعف النخيل وجريده في العراق والشام.

في اليوم التالي ارتدى كبار السن قبل الشباب ذلك الشماخ الأحمر، وأول من فعل ذلك كان والدها، ومن ثم أشقاؤها، ومن بعدهم بقية رجال الحارة، ثم انتقل ذلك بما يشبه التقليد إلى الزوجات والصبايا. ولو أن آلات التصوير الحديثة الموجودة اليوم، كانت موجودة في تلك الأيام، ووضعت في مكان مرتفع، أو التقطت صورها من الفضاء، فسيدهش أصحابها ذلك اللون، وقد لا يستطيع أحد منهم أن يرى غير ذلك الأحمر المتوهج، والصاعد من حارتنا نحو الأعلى، حتى أن أصحاب الحارات المجاورة نسوا اسم حارتنا الحقيقي، وصاروا يسمونها حارة الأحمر.

في نهاية ليلة من تعاليلنا، أو سهراتنا التي تبدأ عادة مع أول الصيف، وتنتهي مع حلول الخريف حيث أعراس الفرح، وزفاف الشباب مع الدفء طقس معتاد، يتوقف عند حلول البرد. في تلك الليلة بالضبط لم تعد مريم إلى البيت. اختفت عن الأنظار بشكل نهائي بعد أن مال عليها في أحد البساتين المجاورة غصن شجرة بلل جذورها حتى ارتوت، ثم انتصبت غصناً آخر إلى

جانبه تفرعت منه أغصان أخرى كي لا يعرف أحدٌ إلى أي غصن تنتمي مريومة.

والدها وأشقاؤها حاولوا التكتم على غيابها في البداية، لكن الأمر فلتَ من بين أيديهم، فمريومة شمس لا يمكن لأحد أن يخفي خبرها، لذلك لجؤوا إلى صمت مفاجئ حل عليهم لا يكلمون أحداً من بعده. وعندما يسيرون في الحارة لا ينظرون في وجه أهلها، كانوا ينظرون إلى الأرض فحسب، وأصابعهم تتلمس شواربهم المصبوغة باللون الأسود، فيبدون وكأن الملمات قد حلت عليهم دفعة واحدة، وكسرت شوكتهم. أما بقية رجال الحارة، فقد فعلوا مثلما فعل أهل مريم حين خلعوا ما وضعوه على رؤوسهم، واستبدلوه بألوان أخرى. في حين بقي بعضهم حاسر الرأس، وقد أنكر أغلبهم أن مريم قد غنت من أجله، أو أنه صاحب «الشماخ» الأحمر حبيبها من دون الآخرين كما زعم في الأيام الدابرة. وعندما سألنا نحن الصغار والدةَ مريم عن غيابها قالت: إن مريم قد تحولت إلى حمامة بيضاء انضمت إلى سربها والتحقت به. لذلك صرنا حين نرى أسراب الحمام تحلق

من فوقنا، نتراهن على أيٍّ من تلك الحمامات هي مريومة، وحين نختلف، نلجأ إلى حكم من بيننا، يرجحُ رأياً على آخر. كان ذلك المُحكمُ يستدلُ في ترجيحه على نقطة، أو ريشة يميل لونها إلى الاحمرار في هذه الحمامة، أو تلك. أما أهل الحارات المجاورة لحارتنا فقد ظلوا يطلقون عليها اسم حارة الأحمر، وحين يستزيد أحد السائلين في سؤاله، يزيدون له قائلين: أحمر مريومة.

* * *

باكراً... فطوم

صراخها ملأ حوش الدار ودوى صداه في الوديان المحيطة بنا، ثم ماشى السهول وارتفع كأنه يلامس عنان السماء.

بقيت عمتي فاطمة أو فطوم كما هو لقبها على تلك الحالة ليومين متتالين، ثم همد صوتها واختفى كأنه لم يكن، أو كأن صاحبته لم تعش بيننا أبداً.

كنا نحن الصغار نتلصص عليهم من علية منزلنا الذي يشبه القصر في ارتفاعه وسعته وعدد حجراته، من دون أن نجرؤ على الظهور، أو أن تبين رؤوسنا خارج شبابيك غرفنا، فقد كان بطشهم مخيفاً ومرعباً إلى حد لا يوصف، وكان كلّ واحد منا يشعر أن تلك السياط والعصي تهوي على جسده قبل أن تسلخ جلد العمة فطوم، فنزداد ارتجافاً مع دموعنا المتساقطة على ما يجري لها.

عمي الأكبر كساب الذي كان يقود حملة تعذيب عمتي فطوم مع أبي وبقية أعمامي كان يخرج من جيبه ورقة كتبتها عمتي بخط يدها يقول مفادها أنها اتفقت على الهروب مع حبيبها ليتزوجا

بعيداً عن العائلة التي لا تسمح تقاليدها بالزواج ممن هم أقل مستوى من عائلتنا. كان يقرأ تلك الورقة أمامها وكأن ذلك قرار محكمة تتلوها على متهم ما قبل أن ينفذ فيه الحكم، ثم يبدأ بعد ذلك بجلدها من دون رحمة، أو شفقة.

عمي الأصغر برهوم كان يقف قبالتها ويقول وكأنه يريد أن يقتلع عينيها: في كرم الزيتون يا خائنة!... لا يكمل بقية الجملة بل يتعجل في صفعها حتى تكل يداه، فيبدل طريقة ضربها بركلها وكأنها أمامه مجرد كرة وحسب. أما أبي فقد كان أقل المجموعة قسوة في ضربها، حيث يفعل ذلك وكأنه يؤدي واجباً عائلياً ثقيلاً على قلبه، وقد سمعنا عمي الأكبر كساب يؤنبه على رخاوته في التعامل مع من تستحق الشنق.

في الفترة التي كانت فيها تتلقى التعذيب سرب إلينا من قبل الخدم أن أعمامي قد اجتمعوا على قتل حبيب عمتي ودفنه ليلاً بعد أن عرفوا قصته مع عمتي واتفاقهما على الزواج متحديان بذلك قوانين العائلة التي لا يسمح لأحد بخرقها وخاصة من قبل الغرباء. لقد أدركوا خطورة الموقف ما يتهدد العائلة ويمس بسمعتها العريقة.

أمي مع نساء أعمامي تهامسن بينهن بأن عمتي قد التقت بحبيبها كثيراً في كرم الزيتون، وفي أمكنة أخرى تبادلا فيها أقصى ما يبذله العشاق، حيث ذابا هناك، وانتشيا بحلاوة الحبّ، وذاقا حلاوته مرات ومرات، وقد كمن لهما أعمامي هناك وتمكنوا من القبض عليهما متلبسين بتهمة الحبّ، حيث اقتيدت عمتي أسيرة ومكبلة بقيودها إلى البيت، ودفن قلبها في ذلك الكرم الذي عاشت فيه مع حبيبها أجمل لحظات العمر وأسعدها، ولعل هذا السبب بالذات هو الذي كان يجعل عمي كساب يقول حانقاً لأبي: لو رأيت ما رأينا لشاب رأسك.

النسوة همسن أيضاً أن ذلك العاشق الغريب الذي أحبّ عمتي، ورغب أن تكون زوجة له، قد أجبر تحت تهديد السلاح أن يحفر قبره بيده. سمعنا أن العاشق بقي ينظر إلى من قتلوه بتحد وازدراء حتى فارق الحياة من دون أن ينطق بكلمة واحدة يطلب فيها الصفح والرحمة، كما سمعنا الكثير من الحكايات عما حدث، ومنها أن عمي نواف قد اقتلع أظافر ذلك الرجل خلال تعذيبه.

تلاشى صوت عمتي، ثم همد بشكل نهائي، وقد توقعنا أنها لم تعد تستطيع الصراخ غير أن الحقيقة لم تكن سوى ذلك السفر

الذي اعتزمته كمداً على فراق حبيبها، وانتقاماً من الحرمان وقسوة الأهل الذين فعلوا فعلتهم بمن أرادت أن تكون له طوال العمر، وهي لم تعد تطيق العمر من بعده.

عمي برهوم قال إنها انتحرت، ولوح بورقة وجدها بجانب سريرها تثبت ذلك الكلام، والرجال الذين عاينوا جثتها مع الطبيب الشرعي قالوا إن مرضاً عضالاً قد داهمها وقضى عليها بشكل مفاجئ، ونحن الصغار لم نصدق ما رواه عمي برهوم ولا هؤلاء الرجال الذين رأيناهم يخرجون من مضافة الدار مع خيوط الشمس الأولى، بل صدقنا فقط ما رأته عيوننا.

سريعاً أتم المشيعون عملهم في دفن عمتي وكأنهم يريدون التخلص من واجب ثقيل يدفنون معه تلك البنت التي ألحقت بعائلتنا العار تاركينها تنام في أعماق الظلمة نومة اللحود الأبدية، وقد نسوا أن هناك من سيلحدهم في يوم ما.

حين ابتعدوا عن قبرها تراكضنا نحن الصغار نحوه، وقد عزمنا أن ننقذها من أكوام التراب التي وضعت فوقها. كنا نريد أن ننبش حفرتها ونخرجها من هناك، فهي عمتنا الغالية على قلوب الجميع، ولنا معها ذكريات لا يمكن نسيانها بسهولة.

كنا صغاراً ولم نكن نصدق أن الموت يمكن أن يخفي سواد عينيها الجميلتين، ويأخذ الأحبة في دروب بعيدة، ويغيبهم عنا إلى الأبد على الرغم أنه قد أوغل في قطافه وخطفها من بيننا.

يومها كنا نتسابق في حمل التراب عن حفرتها بأكفنا الصغيرة، ودموعنا تتساقط، لتخالط ثرى قبرها، وكنا نحث بعضنا من أجل الإسراع في تلك المهمة، وما كنا لننتهي من ذلك لولا وصول أمي التي بادرتنا بالقول: عمتكم ليست هنا يا أولاد.

توقفنا عن العمل، ورفعنا رؤوسنا نحوها، وقد فتحنا أفواهنا استغراباً ونظرنا إليها بعيون تتقد جمراً، وقلنا بصوت واحد كأننا اتفقنا على ذلك من قبل: أين عمتي إذاً؟.

أشارت إلى التلة المحاذية للمقبرة وقالت: عمتكم هناك... فوق.

نظرنا إلى حيث يدها الممدودة، فرأينا امرأة ترتدي ثياب عمتي، وتقف على سفح التلة. أردنا أن نبدأ الركض، لنصعد إليها من فورنا، ولكنها قالت محذرة وكأنها قد عرفت نيتنا: لا تفعلوا ذلك يا أولاد. لن تلحقوا بها. لا زال الوقت باكراً عليكم.

اختلط مع صوتها صوت آخر: باكراً يا فطوم.

لم نرفع أعيننا وأبصارنا عن عمتنا، كنا نحملق بها وهي تصعد بسرعة عجيبة، كانت تصغر، وتصغر، حتى غدت نقطة تلاشت، ثم اختفت، وكنا ونحن نرقب صعودها، وكأن صدى أغنية حزينة قد وقرت في أذاننا تلك اللحظة، وحين انتهينا من ذلك التفتنا إلى قبر عمتي، فوجدنا أبي يجلس إلى جانبه ويفعل مثلما كنا نفعل. كان ينتحب وهو يردد: ظلمنا فطوم.

* * *

رئيس دائرة وعبير

كان خبر تعييني رئيساً للدائرة قد وصل إليها قبل أن أصل، حيث وجدت الجميع في استقبالي، ليقدموا لي المباركة والتهنئة. أما هي فقد كان استقبالها لي مميزاً ومختلفاً عن الآخرين، فعندما وصلت إلى أول الدرج المؤدي إلى دائرتنا كانت تقف على أوله فتاة بيضاء مليحة الوجه ذات عينين ملونتين وجميلتين، مكتملة الصفات لولا قصر في قامتها ما عابها، بل زاد على جمالها جمالاً آخر، كنت أجر قدمي جراً بسبب آلام أصابتني في الظهر، والتي أكد لي الطبيب أنها آلام «الديسك» ولا بدَّ من إجراء عملية جراحية لها، بينما أصرت أمي على أنها ناتجة عن الهم والتعب والظروف التي مررت بها سابقاً وأنا أركض خلف لقمة العيش.

قالت الفتاة وهي تتقدم نحوي: مبارك يا أستاذ محمود.

رددت وأنا كمن يرى تلك الفتاة لأول مرة: بارك الله فيك.

- اسمي عبير أحمد السالم.

- تشرفنا، اسم على مسمى.

طلبت مني أن أضع يدي على كتفها، لأستند عليها أثناء صعودي الدرج، لكن خجلي لم يسمح لي بذلك، لحظتئذ شدت يدي ووضعتها على كتفها قائلة: عادي يا أستاذ محمود، عادي.

ولحظتئذ لامست يدي لحم كتفها الذي رأيته في مخيلتي أبيضاً، مكتنزاً وشهياً. لامست حمالة نهديها التي تمر من ذاك الكتف، وهذا ما زاد في اضطرابي ودقات قلبي، فقالت وكأنها تهون علي الأمر: أنا موظفة لديك هنا في هذه الدائرة، لقد رأيتك وراقبتك منذ تعيينك في مكتبك الصغير السابق، وتوقعت لك هذا المستقبل يوماً.

قلت لنفسي: اليوم الجميع يحتضنك، فلا تتردد في احتضانهم.

ثم أضفت لنفسي أيضاً وبشيء من الغرور: هذا ما يجب أن أكون عليه ومنذ زمن.

قلت راداً على كلام عبير: يبدو يا آنسة أنني لم أكن أرى في السابق وإلا كيف غاب عني جمال كجمالك ورقتك؟.

قالت ونحن نصل نهاية الدرج: هل حفظت اسمي يا أستاذ؟.

قلت: ما من أحد يستطيع نسيان الرائحة الطيبة.

عندها ابتسمت، فبدت لي أسنانها بيضاء ناصعة، ووجدتني أهمس لنفسي: عسى أن يفوح عطرها عليك ويملؤك طيباً في الأيام القادمة.

تغير كلّ شيء منذ صرت رئيساً للدائرة، ومنذ عرفت عبير، وفي جلساتنا المسائية على المصطبة أمام الدار، لم أعد أستطيع التركيز مع حديث أمي، لم أجد ثمة من داع لذلك فقد حفظت حكاياتها عن ظهر قلب، وقد أعادتها عليَّ عشرات المرات سابقاً، ولذلك وحتى لا تشعر أمي أنني مشغول عنها، فقد تعودت على فتح فمي وعينيي محدقاً بنظري إليها، بينما فكري يسبح في فضاءات أخرى، ليصل إلى عبير تلك الفتاة التي كانت أول مستقبلٍ لي عند تعييني رئيساً للدائرة، وأول امرأة تنتظرني، ويبدو أنها ستأخذ المكان الأول قي حياتي، فلقد تعلقها قلبي ولم يعد قادراً على البعد، أو الاستغناء عنها.

جذبتني إليها بحركاتها وحديثها الناعم، وضحكتها التي تَعِدُ بعطاءٍ كثير. جعلتني أحبها وأتعلق بها، وأعشقها بكلّ ما أملك من حواسٍ ومشاعر. كدت أنسى إلى حين ما مرّ بي من شقاء.

نسيت زوجتي وبناتي وأمي وشقيقتي ريم وهمومهم وما يسببونه لي من متاعب، وآلام ظهري التي حلت عليَّ في الآونة الأخيرة أصبحت كأنها شيء من الماضي.

لم تكن تغيب حتى تحضر ومعها القهوة، أو الشاي، أو أي مشروب آخر نحتسيه معاً، كانت في أغلب الأحيان تدعوني لنتناول طعام الغداء معاً، وحين أمدُّ يدي لدفع الحساب تقول وهي تمسك بيدي مثل أم حنون: هذه النقود ليست لك، إنها من حق بناتك، سأدفع أنا الآن، وفي المستقبل سأدعك تدفع.

- ألا ليت المستقبل يأتي الآن أيتها الحبيبة.

- كل شيء في أوانه.

- من أنت يا فتاة؟.

أسألها في كل مرة تعبيراً عن امتناني وشكري لحبها الذي جاءني بعد أن كاد يجتاحني اليباس والقحط، فتجيبني وضحكتها تسابقها: أنا عبير السالم هل نسيت؟.

أقول بما يتسع الحبّ من كلمات: أنت ملاكٌ هبط فوق هذه الأرض، ليبعث السعادة إلى قلبي من جديد.

كانت أمي تسترسل في حديثها كثيراً.

وكنت أهجس في نفسي قائلاً وكأن الحبّ الجديد قد حولني إلى فيلسوف: يا للمرأة عندما تفتح قلبها، فإنها تفتح أبواباً من الفرح القادم. تفتح أنهاراً وبحوراً من الشوق والمحبة، ويا لتعس قلب الرجل الذي يدفن في كهوف قلبه وظلماته أعداداً من النساء اللواتي عشقهن واللواتي سوف يعشقهن في المستقبل.

أمس قطفت منها قبلة شعرت بعدها أنني ملك يُتوَّج على عرشه، قبلةٌ واحدةٌ أعادتني عشرين عاماً نحو الوراء، أعادتني شاباً يتذوق طعماً لم يجربه سابقاً وليبدأ بعدها بمرحلة من تخيل لا ينتهي.

أمي لاحظت شرودي في سهرة من سهراتنا الليلية تلك، فهزتني بيدها قائلة: أنت معي يا محمود؟.

قلت: بلى، أنا أشبه والدك جدي في إنجاب الإناث.

قالت: كذبت، جدك أنجب عدداً من الذكور ولكنهم جميعاً ماتوا، ألم أقل أنّك لست معي؟.

صحيح أن أمي قد سردت لي تلك الحكايات عشرات المرات، لكنّها كانت في كلّ مرة تضيف لحكايتها، أو تنقص منها

شيئاً سرياً تكتشف خلاله من يستمع إليها إن كان منتبهاً لحديثها أم لا.

زوجتي لاحظت التغيير الذي طرأ عليَّ بعد اعتزالي للجميع وحبّي الدائم لأختلي بنفسي حتى إنني جلبت أوراقاً وأقلاماً، وبدأت أخط فوقها بعض الكلمات، لا أدري إن كانت شعراً، أو نثراً، أو أيَّ كلام عادي، وهذا ما زاد في استغرابها وشكوكها وجعلها تشددُ من رقابتها عليَّ.

ربما قرأت في مكان ما إن الكاتب العربي يعيش مخنوقاً من رقابات كثيرة تبدأ من جهات كثيرة ولا تنتهي عند زوجته وأهله حتى يموت، وعندها يحيا من جديد. لست متأكداً إن كنت قد قرأت هذا الكلام. قد أكون سمعته من أحدهم مشافهة، لكنني على كل حال حمدت ربي لأنني لست كاتباً حتى لا أعيش وأموت خنقاً، فهو على ما أعتقد أصعب أنواع الموت.

هذه الكتابة التي رأتني زوجتي عليها جعلتها تلتحف بشكوكها وتبيتُ عليها لأنها تعرفني لا أقرأ ولا أكتب منذُ تخرجت في الجامعة، لكنَّ حبَّ عبير المتدفق نحوي مثل شلالٍ جعلني أمسك القلم والورقة من جديد.

زوجتي أحست وشعرت بوجود أنثى غيرها في حياتي. فتشت عنها بين ملابسي فلم تجدها. حاولت قراءة ما بين السطور لكنَّ محاولاتها ذهبت سدىً، هي متأكدةٌ من وجودها، لكنها كانت تبحث عن الدليل فقط.

حين اكتشفت العلاقة العاطفية التي تربطني بعبير السالم، ذلك الحبّ الذي جاءني أخيراً، فقلب حياتي وغير طباعي، ولو أنه جاء متأخراً قليلاً، فهو خير من ألا يجيء. من أين اكتشفت سرَّ علاقتي بمحبوبتي الجديدة؟ وكيف حصلت على هذه التفاصيل الصغيرة وهي لم تغادر منزلنا، أو القرية منذُ شهور؟ هذا ما كاد يطير عقلي ويذهب به على الرغم من يقيني أنَّ للنساء أساليب ووسائط لا حصر لها في الحصول على هكذا معلومات، وأنَّ الواحدة منهن تشعر وتحس بوجود من ستشاركها زوجها على بعد مئات الكيلو مترات. لذا قررت مواجهتها وإبلاغها ما عزمت عليه على الرغم من أنني كما تردد أمي دائماً: «معرس ومفلس».

زوجتي قالت تذكرني بكلماتي: لقد قلت يوماً.

قاطعتها: قلت وتراجعت، الرجال هذه الأيام من يقولون ويتراجعون عن كلامهم.

غصت الكلمات في حلقها: ووعودك؟.

- لا وعود لشجرة لا تثمر، فالزمي الصمت حتى لا أقطعك.

- لقد أثمرت.

- أثمرتِ من سيتولى أمرهن غيري، أثمرت شوكاً وشيحاً وعوسجاً.

كنت لئيماً وقاسياً في كلامي، لأنني وجدت ذلك من ضرورات التكتيك الهجومية إذا ما أردت الارتباط بعبير.

تركتها لدموعها ومضيت غير ملتفت خلفي، فأنا أعرف أن المرأة عندما تبكي تكون في حالة من حالات القوة، وليس في حالة من الضعف كما يعتقد أغلب الناس. وكما توقعت كان، فقد استطاعت زوجتي أن تحرض وتجيش ضدي ثلاثة ممن حرضوني على الزواج يوماً وهم أمي وعماي حسين ومحسن.

عمي محسن قال، وهو يبتسم ويدخل الدار كلمات حفظها عندما كان صبياً أيام كانوا يسكنون بيوت الشعر بما يشبه البداوة:

«كان أمس مثل اليومْ

واليوم مثل أمس

وان كان باكر مثلهن

زاد غليَّ

يابو نهود معذيات

عن اللمس

بيض الحمام ورابين

لها بظلَّي»

أمي ردت عليه وكأنها في حفلة زجلٍ شعبي:

«ياعيال لا يغرّنَّكمْ صُفرَ العَرَاقيبْ

ما بِهِنْ مَعزَّة سوَّد الله قراكم»

عمي محسن جلس وابتسامته تزدادُ اتساعاً. رفض تناول كأس الشاي وقال معتذراً: «إن شربتها ستخرجني عشرات المرات إلى الخلاء».

عمي حسين قال، وكأنه يعاتبني، أو لكأنه جاء لموضوع آخر غير الذي توقعت: «مالك يا محمود؟ لا تتفقدني ولا تزورني، وكأنك لست ابن أخي».

حاول تثبيت يديه المرتجفتين من دون جدوى.

زوجتي جلست إلى جانبهم، فصاروا أربعة، أمي دخلت في الموضوع مباشرة «ليش بدك تتزوج؟».

- أنا حرّ، وسأتزوج. ليس لأحد علاقة بي.

- طول بالك يا ابن أخي، ولا تكسرْ بخاطر هذه المسكينة بعد هذا العمر.

قالها عمي محسن وأيَّدهُ عمي حسين في ذلك.

دار بيننا حوار طويل تلك الليلة، ومعركة حامية الوطيس كادت أن تنشب لولا انسحابي في اللحظات الأخيرة. كانوا أربعة، ولم يستطيعوا كسري، فقد كنت مستعداً لكسر ثمانية، أو لكسر قرية بكاملها من أجل عيون من غزا حبّها قلبي.

علي ابن عمي وعندما التقاني أتمشى في ساعة متأخرة من الليل على الطريق قال: «الله لا يحب الظلم، فلا تظلم». كان على الرغم من كلماته تلك يائساً ومكسور الجناح، فمن كسر جناحه في ذلك الجزء المتبقي من الليل لا أدري؟. لم أتوقف كثيراً عند آلامه وأسباب حزنه، فقد كنت قد اتخذت قراراً لا عودة عنه ولا رجوع، وكانت عبير وأهلها هما غايتي ومقصودي حين ينبلج الفجر وأستطيع معه أن أركب أول حافلة مسافرة إلى المدينة.

* * *

لم يعترض، ولم تبدو على وجهه علامات القبول، أو الرفض. كان حيادياً بمعنى من المعاني، وكأنه يريد أن يبلغ حدود الماء، والغيم الذي يعتصر ليسكبه فوقنا، ليصل إلى أعمق حفرة قد تستطيع أن تنبشها أيدي من يشتغلون فيها. كان وكأنه راضياً وقابلاً بكل شيء عندما رفعت الغطاء عنه و ...

المطر... المطر لا يتوقف عن الهطل. يبدو لمن يراهُ كحبالٍ طويلة تمتدُ ما بين السماء والأرض التي شبعت، ولم تعد تبتلع منه شيئاً. سيولٌ كبيرة تشكلت وبدأت تتخذ مجراها إلى اليرموك جنوباً، وإلى الرقاد شمالاً. صوت هدير مياه وادي الرقاد يزداد ارتفاعاً مع تواصل هطل المطر، ونحن حولهُ نطلُ برؤوسنا نحو الخارج آملينَ أن يتوقف...

بكاء النسوة لا يتوقف. يقطعُ صمت الرجال، ويختلطَ مع صوت المطر، فيصير كأنه ترنيمة أبدية تضغط مع الوقت على صدورنا، وتزحف إلى أرواحنا المتعبة من شدة الحزن.

كان القبرُ قد جُهز في فترة الصباح الباكرة... أبي يستلقي فوق نعشهِ يحثنا على الإسراع في دفنهِ. يبدو أنهُ ملَّ هذا الانتظار. لون وجههِ ازدادَ اصفراراً وشفتهُ السفلى مرتخية قليلاً نحو الأسفل، وكأنهُ في حالةٍ من حالات مرضهِ. قامتهُ بدت أطول من قبل بعدما مدَّ جسدهُ، ليتخلصَ من انحناءاتٍ وتشنجاتٍ رافقتهُ لسنواتٍ طويلة.

كنتُ بعيداً عن البلدة عندما فارقَ الحياة بُعيدَ الغروب، ولم يكن بمقدوري إلا والليل قد حل الوصول إلى المنزل. رفعتُ الغطاء عنهُ،وعانقتهُ بحرارةٍ وبكاء، توسلتُ إليهِ أن يسامحني، لكنهُ بقي صامتاً. أحسستُ للحظاتٍ أنهُ لا يريد ذلك، فازداد بكائي. سقطت دموعي فوق وجههِ، عندها شعرتُ أن شفتيهِ انفرجتا، لعلهُ رقَّ لها قليلاً. لم يكن يريدني أن أغادرَ قبيل هذا العيد لأقضيهِ بعيداً عن الدار كما هي عادتي منذ سنواتٍ طويلة، حيث أعمل في تلك الفترة بالأجرة على إحدى أراجيح الأطفال في المدينة. أوزعُ عليهم أشياءَ لم أمتلكها في حياتي كالضحك، والغناء.

توقفتُ عن البكاء، ورحتُ ألاحقُ أفراد العائلة بأسئلةٍ كانت إجابتهم عليها مقتضبة، سريعة.

شقيقتي «ريم» كانت أشدنا بكاءً ونحن نخرجهُ من باب الدار مستغلين توقف المطر لفترةٍ قصيرةٍ جداً. بكت بصوتٍ مرتفع مناديةً على أبي متوسلةً إليهِ ألّا يترك الدار. سقطت وأغمي عليها بينما تابع الرجال خطواتهم السريعة نحو المقبرة حاملينَ أبي الذي لم يعلن أي اعتراضٍ، أو موقفٍ، أو ينبسَ بحرفٍ، أو كلمة. كان يكره البرد في حياتهِ. يبقى قريباً من مدفأة الحطب والمازوت فيما بعد طوال فصل الشتاء، واليوم يغادرُ تاركاً الدفءَ المتجمع في أنحاءِ غرفتهِ كلّها إلى عالمٍ لا نعرف عنهُ شيئاً.

باردٌ وموجعٌ هذا العيد هجم على أبي ومنعهُ من البقاء معنا ولو لأيامٍ ثلاث وجمد الدم في عروقنا ونحن نستقبل القادمين للعزاء.

سامحني أبي، واغفر لي ما ارتكبتهُ بحقكَ، مازلتُ طفلاً رغم كل الأعوام التي مضت. مازلتُ لا أعرفُ كيف يقتلعنا الموت بشراسةٍ، وقسوةٍ ويلقينا بعيداً كنباتاتٍ لا بدَّ من إزالتها لإتاحة المجال لأخرى غيرها. ها هي سبحتك وعصاك، وفراشك الممدد.

ساعة يدكَ وأشياءُ أخرى تنتظركَ معتقدةً أنكَ لا بدَّ عائدٌ إليها، لعلها لا تعرف أن الموت طريقٌ لا عودةَ منهُ ولا رجوع. طريقٌ لا بدَّ من سلوكه. وحشٌ ينهشُ المخلوقات الحية والنباتات. يطولُ حتى التراب والحجارة. لا يبقِ من الإنسان إلا بقايا ذكرٍ يزول يوماً بعد آخر وأشياء أخرى نبحثُ عنها فلا نجدها.

* * *

لحظات في القمة

كنا نحن الأصدقاء الثلاثة نجلس في الصفوف الأخيرة من تلك الصالة الواقعة في الطابق الأرضي لذلك الفندق الذي يتصف بفخامته، دعينا إلى هناك، للتوقيع على كتاب له علاقة وثيقة بصناعة السينما. كنت أجلس في الوسط بين رفيقي، ملت برأسي يميناً وسألت صديقي الطاهر عن سبب الدعوة ومضمون الكتاب الذي وقعنا عليه عند باب تلك الصالة الواسعة، فابتسم، فعرفت أنه مثلي لا يعرف. ملت برأسي يساراً وكررت السؤال على صديقي سهيل فقال: إنهم يريدون أن يأخذوا السينما إلى وزارة الإعلام. لكنني عرفت فيما بعد أنه لا يعرف مثلنا. فهم لا يريدون نقلها إلى تلك الوزارة.

بدأ المجتمعون بتقبيل بعضهم، ولم يقبلنا أحد، فقبلنا بعضنا نكاية بمن لم يقبلونا، ثم رحب من يقف على المنصة بأصدقائه ومعارفه ومن يخصونه بأشد عبارات الترحيب وأحرها، ولم يرحب بنا أحد، فصافحت صديقيّ سهيل والطاهر، محاولاً تعويضهما عما حدث. كنا في حالة تردد وحيرة، هل نبقى، أم نغادر؟ ثم لماذا جئنا

أصلاً إلى هنا؟ وحينما دخل فراس ابن خال سهيل انتهت أسئلتنا ومعها ترددنا، حيث عانق صديقنا وصافحنا بحرارة وكأن بيننا وبينه وشائج طويلة من المحبة والمعرفة، غادر سريعاً كما دخل، ولكنه أكد على سهيل بضرورة أن نتبعه إلى حيث يعمل في الطابق الأخير من هذا الفندق.

ووجدنا أنفسنا من جديد ضمن حفلة الترحيب والمجاملات التي تتجدد في كلّ دقيقة، وكأن برنامج المجتمعين في هذا المكان هو ترحيبي فقط، ولحظتها انسللنا مغادرين المكان بصمت وكأن اتفاقاً سرياً عقد بيننا على ذلك، وفي تلك اللحظة بالذات كانت أبصارنا تتعلق بالأعلى وتنظر إلى فوق، إلى حيث صاحب تلك الدعوة التي وجهت لنا قبل قليل.

صعدنا سريعاً وصرنا فوق، فوق في الطابق العلوي من الفندق، أو ما يطلق عليه بالدور الخامس عشر، ذاك الذي يدور بحركة بطيئة لا تلاحظ، وهناك جلسنا حول طاولة لم يوضع عليها أي شيء بعد، وصرنا نراقب دمشق من الأعلى، كان المشهد رائعاً حقاً، بدت علينا الأبنية المحيطة القريبة منا وكذلك البعيدة صغيرة جداً، وبدا البشر الذين يدبون في الشوارع مثل نمل لا يكاد يرى.

قال سهيل: انتبهوا، ثمن الطلبات هنا باهظ جداً.

أخذتني الحمية، وأخرجت من جيبي رزمة من النقود، كنت قد تسلمتها في صباح ذلك اليوم من نقابة الفنانين، تعويضاً عن كتابة عمل مسرحي، قضيت فيه وقتاً عصيباً وطويلاً حتى أتممته. ووضعتها على الطاولة ثم قلت: هذا المبلغ يكفينا لنحتسي القهوة ونشرب عصيراً.

جاء النادل مبتسماً ودعانا للجلوس إلى طاولة مجاورة عليها ما لذ وطاب من طعام وشراب، ثم أبلغنا اعتذار صاحب الدعوة، فهو سيتأخر قليلاً لانشغاله بأمر ما خارج الفندق.

اتسعت ابتساماتنا وزاد فرحنا، ونحن نشير إلى بعض الأبنية الهامة ومنها أبنية الوزارات وبعض الشوارع العريضة، وحين حضر فراس قريب صديقنا سهيل رحب بنا أجمل ترحيب، ثم راح بنفسه يقوم على خدمتنا بكل تواضع. كانت تبدو عليه علامات الثراء، وعلى الرغم من ذلك كان مهتماً بنا أشد اهتمام. استبدل بعض الأطعمة بنفسه، وشدد على سهيل كي يشرب أكثر، كان رائعاً بما تعنيه تلك الكلمة. وحين مضى من الوقت ما مضى، وكاد الليل يصير من خلفنا قال سهيل: مللنا من المطاعم والفنادق الفخمة.

قلت: مللنا.

كان صديقنا الطاهر يضحك، معتقداً أن أمراً ما قد أصاب عقلينا.

قال سهيل: سنعود إلى المطاعم الشعبية. فأكدت حتمية العودة إلى القاعدة، فضحك الطاهر أكثر.

قال سهيل متذمراً: ستصيبنا التخمة يا أخي.

قلت: ممكن أن تصيبنا، فلنكن على حذر.

عندها تقاودنا، واتجهنا إلى المصعد. خبأ الطاهر ابتسامته الماكرة وسأل: إلى أين؟

قلنا بصوت واحد وكأننا تدربنا طويلاً على ذلك: سنعود إلى الشعب. إلى طبقتنا الحنونة. وكان المصعد ينزل، وينزل كأنه يطوح بنا، ويرمينا إلى هوة سحيقة.

كان ثمة أصوات يصدر عنها ما يشبه الفرحة الشامتة بعودتنا إلى رحمنا الأول، وتربتنا الأولى، عندها بدونا، ونحن على الأرض، وكأننا لم نمكث فوق سوى لحظات.

* * *

لو كان هنا

عندما كنت وإياه نسير في سوق شعبي ومرت إحداهن من جانبنا قال بلهجته الخاصة وكأنه لم يفعل شيئاً: «روحي فدوى لها لعيون» ويومها وعلى الرغم من خجلي، وتحفظي على هذه الأمور، لم أتمالك نفسي، فقد انطلقت مني ضحكة مجلجلة وسط السوق، ربما لأنني لم أعهد من صديقي تلك الكلمات، أو ربما لأنني استحسنتها. أين ذلك الصديق الفنان مني اليوم؟. أنا متأكد أنه لو جاء وسمعني أردد كلماته تلك لشبع ضحكاً من تصرفي ذاك.

تمنيت مراراً أن يحدث هذا، تمنيت أن التقيه لمرة واحدة فقط، كي يحدثني عن أشياء كثيرة أريد أن أسأله عنها، ولكن أنى لي بتلك الأمنية وقد صرت أحسب في مخيلتي أن بيننا مسافات طويلة. بيننا تراب وحجارة وشاهدة كتبت على عجل لتوضع فوق لحده.

كنت مستلقياً أحدق في سقف الغرفة، وأراقب عينيها المعلقتين هناك. أوجه إلى قلبي المراهق سؤالي الدائم وهو كيف استطاع أن يعشق هذا العدد من النساء في آن واحد؟.

لو كنت أعرف كيف أكتب لكتبت ذلك، ولو كنت أتقن الرسم، لرسمت الكثير من اللوحات التي تختص بالعيون.

آه لو يعود صديقي مرة أخرى، بالتأكيد كنت سأطلب منه أن يجوس مخيلتي ودماغي، وأن يعبر داخلي كلّه بذاكرته التصويرية، ليجسد كلّ تلك العيون التي تحيا فيه بعشرات اللوحات الفنية التي لم ترسم بعد إلا في خيالي. وجهه بقي يتناوب مع العيون الجميلة في المجيء إلي تلك الليلة، ما غيب النوم عن أجفاني وجعلني انتظر الفجر بفارغ الصبر، وفي داخلي سؤال ظل يبرحني طوال الوقت الفائت، ونبز الآن بشكل مفاجئ، هل حقاً أنه مات وغادر عالمنا إلى الأبد، أم إنه ما زال يعيش فوق قطعة من هذه الأرض؟. دائماً أحب أن أرجح أنه يحيا في مكان ما، وغالباً ما يحضرني ببهائه وتألقه وجمال عينيه.

صديقي الفنان مازحني، وأضحكني مرات عديدة في تلك الليلة، وهذه عادته عندما نلتقي، لكنه كان يغادر سريعاً، كان يأتي كومضة، وكذلك يمضي، وكان في كلّ مرة يحاول أن يخفي دموعه عني، لكنها كانت في كلّ مرة تفضحه أمامي.

لم يكن يريد العودة إلى العراق في مثل تلك الظروف، وهو قد غادرها قبل الحرب بسنوات عديدة، لولا الذي حدث لأسرته

هناك، بكى كثيراً يومها، وضحك كثيراً، ثم فجأة قرر السفر، وكأنه الملك الظليل سيقطع القفار والفيافي للثأر من قتلة أبيه.

ممن ستثأر يا صديقي وقد أبيدت أسرتك عن بكرة أبيها؟ ذهب الأب والأخ والأخت، وذهبت الأم؟.

رددتها مراراً. وبقي صامتاً لا يجيب، وكأن حديثي لم يكن معه، بل مع شخص آخر، كانت عيناه عندما انتهى من البكاء كقنديل مشتعل، حتى إنني حسبت أن العراق اشتعل في داخله، وأن جمر دموعه قد نضب، ولتبقى في قلبه حسرات وحسرات على فقدان الأهل، ويومها كنت أريد أن أقول له: أرسم دموعك ودموعنا فوق الورق وأبق هنا بيننا، لا تتردد يا رجل وامزج كل ألوانك واصنع منها عراقاً جديداً في قلبك.

لكنه لم يدعني أقول ما أردت قوله. كنت أريده أن يهدأ ويفكر في الأمر مليّاً قبل أن يعود، وقبل أن يقع بيد من يقتلون من أجل الاسم والهوية، وأردته أن ينجو من حبائل العشيرة، وبراثن الطائفية التي أسالت دم الوطن في مواضع كثيرة من جسده.

كان عنيداً، وشامخاً، وشجاعاً، لا يتراجع، ولا يهاب الموت. لم يستمع لما قلت، ولم ينصت لهواجس قلبي الذي تناهشه خوف

وقلق من قرار رحيله، لكنه قال كلمة واحدة من دون أن يلتفت نحوي: الخوف ما هو زين، خلص، البلاد طلبت أهلها».

فارس على صهوته مضى ذلك الصديق، ليلحق بمن سبقه، تاركاً ألوانه ولوحاته في انتظار عودته التي قال إنها لن تطول. وامتدت عمراً. أين أنت يا صديقي الآن، وماذا ستفعل الألوان في زمن البندقية القاتلة والمدية الغادرة؟.

عندما كنت أحدثه عن هذا الأمر، أو غيره لم يكن يبدي أي اهتمام، كان يمسك بجهاز التحكم ويضغط عليه، لينتقل بالتلفاز بين محطات فضائية عديدة، ويتابع أخبار الدمار والقتل التي تحدث في كلّ مكان، وكأنه يتابع عدة مباريات رياضية، يريد معرفة نتائجها على الفور، لكنني عندما عدت إلى لوحاته التي رسمها بعد أيام من رحيله وجدته قد رسم مقبرة كبيرة محاطة بمجموعة أبنية مهدمة.

* * *

وقلبي عليكِ جريح، وعمري رأيت يغيب بعيداً

كما الغيم تأخذها الريح

أيا ليت حلماً هو ما أرى.

أذكر أنك قلتِ لي ذاتَ مرة:عد إلى جنوبك، تطهر به واغتسل. فكيف أعود لأجرب الاغتسال برماله وشمسه الحارقة؟ أنى لي بالعودة ومكتوب عليّ أن أعيش بقية عمر وأحزان أخرى كان عليَّ أن أشهدها في رحلتي المستمرة باحثاً عنك؟.

هأنذا ومن جديد ممزقاً تتناهبني الحيرة، وتأكلني الطرقات، وينهش أعصابي ازدحام المارة في الشوارع والحارات التي تكاد تتقيأ تلك الأعداد من البشر الفارين من موت يغزو بلاداً منذورة للعشق والحياة بحثاً عن السلامة المأمولة، وغيابك طال وطال، مذ دخلتِ ذاك القفص الحديدي الذي قيد معصميك وروحك إلى الأبد.

هأنذا في تلك المدينة، أتملى الوجوه، وأرقب الأجساد، علّي أعثر عليكِ، أو على وجه يشبه وجهكِ من دون جدوى، أو حتى بارقة أمل، وحين يصبح عنوان من نحبّ هو المستحيل، يغدو العيش مستحيلاً، ويغدو الماء علقماً والهواء ملوثاً خانقاً، والدروب شائكة وعرة، ولذا رحتُ أفتشُ عنك في مدن أخرى وأسماء نساء كثيرات، فكانت سوسن وغادة وسناء ووداد وسماح ومدن لا عد لها، قواعدها ملحٌ وطين، وبناؤها إسمنت وحديد، كانت ذات شواطئ ضحلة، ومياه آسنة، وكانت ضيقة خانقة تبحثُ فيها الروح عن نسمة هواء عليلة فلا تجدها، وكانت مملوءة بالأحجار والصخور، وليس فيها ما لديك.

لم أكن أعرف تلك الأعداد من المدن إلا في غيابكِ ولم يعد للروح صبرٌ عليه.

كنتِ دليلاً ومهتدىً للروح، وفي غيابك أضاعت الروح بوصلة الجهات، وفقدت مركز التوازن، ودخلت عمق المدينة الملهى، واعتدتُ معها لحس الفخذ الملصق على الباب هناك.

كنتُ استأذن النساء المصلوبات على الحيطان في تقبيل أيديهن، وأرجلهن، ثم أبكي طويلاً بعدها، كنتُ أودع حتى الملهى بالدموع،

لعلكِ تسمعينني وتعودين، وقبل بكيتُ عندما رأيتك تحملين جواز سفرك الذي أصدرته رغماً مني، بكيتُ لأنني رأيته جوازاً للوداع، وبدأت خيانات الجسد تعوي في داخله مثل ذئاب هاجمها بردٌ وثلجٌ ومطر، فازدادت شراسة وجوعاً، استيقظت في داخله ضواري الصحراء كلّها، استجابة لزمن الحرب الذي تقل فيه أشياء، وتكثر أشياء أخرى، إنها سقطات الجسد وزلاته التي لم ينتج عنها إلا خيباتٌ أخرى تضافُ إلى خيباتي السابقة، فيا لتعس الجسد عندما تنحصر كلّ وظائفه ومهامه في عمل واحد، ومسكينة تلك الروح عندما تغوص في بحر من الرذيلة والآثام، فاغفري وسامحي أيتها العزيزة الغالية، لأنني لمتك في لحظة من اللحظات، وحمّلتك ما لا تستطيعين حمله، لكنه قلب المحبّ هو من يروم الوصل قبل صاحبه...

وبعد عمر من البحث، تيبست فيه العروق، وشاخت المشاعر، وبقيتِ في قلبي مثل صرح كبير، لا يزول، ولا يتزحزح.

قالوا لي: إنك هنا في هذا المكان الضيق. ومن جديد أصابتني الدهشة، وسيطر عليّ الذهول، أنتِ كلك تنحشرين في هذا المكان الضيق، وأنتِ كلك يفصلك الظلام عن النور؟. كيف يحدثُ هذا؟... أكادُ لا أصدق، وأنا أعرفك قطعة من نور.

وكان سفراً تقشعرُ له الأبدان هذا الذي اعتزمت، وكان وداعاً عظيماً هذا الذي أشهده الآن، وأنا وحدي من يتكلم بحرقة وألم، منذُ وصلتُ إلى هنا، علك ترجعين عن إصرارك على هذا الرحيل، لماذا لا تردين عليّ، ألا يسمحُ لكِ الموت أن تجيبي ولو بكلمات؟ وهل حقاً إنكِ خرجتِ من هذا الجسد إلى الأبد؟. متأكدٌ أنك تسمعينني، وكلّ ما أخشاهُ أن أكون قد نكأت جراحاتٍ كادت تندمل.

كلُ جسدكِ الآن تحت هذا التراب، فدعيني أقبلهُ بجوع ونهم، دعيني أللم حبيبات منه، وأضمها إلى صدري، فقد كنتُ أتوقع أن تلمني الدنيا معكِ.

لا أدري ما أفعله الآن، وأنتِ راحلةٌ ومقيمةٌ، ميتةٌ وحيةٌ؟... الدموع لا تكفي لرحيل مثل رحيلك، الدموع تصبح مبتذلة وساذجة أمام هذا الذي حدث. الحزن رفيقي وطريقي، لكنه لا يكفي للوصول إليكِ، لا يكفي الحزن رجلاً مثلي خلق من الأحزان. ما زال حبّك يسكنني، وعندما لا نستطيع أن نقدم للذين نحبهم غير الحبّ، علينا أن نحبهم حتى الموت، لنسعد بأننا قدّمنا لهم أغلى ما نملك. الحيرة تأكلني بعدما تأكدت أن الموت قد حل عليكِ، وأصابكِ، وأن هذا الجسد الراقد تحت التراب الآن هو جسدك،

فماذا أقدّم لك، وماذا سأفعل؟. قولي، هل العيش مستطاع في دنيا لستِ فيها؟.

لا أدري كيف سأحزن عليك، وعلى وطن يموت؟. وكيف سأبكي مدينة تدفن بعد أن قصفتها نيران الحرب بكلّ جهل وغباوة؟...

قالوا لي إن رصاصات رشاش عمياء قتلتكِ على الطريق.

وقالوا هي شظايا قنبلة انفجرت في سوق شعبي.

بينما أكد بعضهم بأنها قذيفة سقطت من السماء على ساحة الشيخ في مدينتكم وأدت إلى موتك.

وآخرون قالوا إن مرضاً قد تسلل إليكِ، وفتكَ بكِ، ثم اقتادوني إلى هنا، وقالوا هذا هو قبرك. ومضوا من دون أن يدروا حجم الفاجعة وهول المصاب، وأن ما أنت فيه الآن قد سبقتك إليه منذ تركتني آخر مرة، ومنذ أول رصاصة أطلقت لتكون بديلاً من الكلام، فيا امرأة من دفء ضائع، تاه القلب وراء خطاكِ، كيف السلوى والجرح يسلمني للجرح؟ وكيف أعيدك صرحاً شامخاً، وطناً من كلّ الألوان... يا ليتني أقول إن البشر تعاد...

* * *

رجل السوق

كنت جديداً على مهنة التعليم حين جئت إلى ذلك السوق، وكنت ربما غراً حديثاً على الحياة وعلى كلّ شيء.

لم أكن أعلم أنه يراقبني منذ أن وطأت قدماي أرض المحشر تلك، والتي دخلتها خجولاً، وخرجت منها مبللاً بما لم يكن يوماً في حسباني.

آه من الفقر وأوجاعه، لعنه الله، ولعن معه الحاجة التي توصل إلى المذلة.

هكذا كنت أقول لنفسي، وأنا أدخله في الأيام الأولى. لكن صوتاً آخر كان ينبع من داخلي يطالبني بالتصبر، ويخرس تذمري وشتائمي التي أطلقها كلما دخلته، فبضع ليرات على حد زعمه لن تضرني، وستساعدني على العيش في «معمعمة» المدينة التي تشبه في تزاحمها هذا السوق إلى حد كبير .

أذكر أنني كنت أقف إلى جانب بضاعتي في يوم عطلتي الرسمية وأنادي عليها بصوت خجول لا يكاد يخرج من فمي مردداً: «العسل للعسل». وقد ضاع صوتي بين تلك الأصوات التي تجهر منادية على بضاعتها بأصوات تكاد أن تمزق السمع، وتشق عنان الفضاء.

عندها برز لي أحدهم بجسده الفارع مثل مارد، وراح يوجه لي أنواع الشتائم البذيئة كلّها والشرر يتقادح من عينيه، استغربت ذلك حد الذهول، فأنا لا أعرف الرجل، وحسبت نفسي أنني أراه للمرة الأولى في حياتي، لكنه كان قد رآني وراقبني منذ وصولي الأول إلى هنا، وقد ثار غضبه، لأنني جذبت الكثير من الزبائن نحو بضاعتي، وأعلنت عنها بسعر أقل من سعره.

حاولت يومها أن أقول شيئاً، حاولت أن أشرح له السبب الذي دفعني لذلك، لكن لكمته أخرست كل شيء، وهدمت ما بيننا من فوارق، حيث ترنح الرسول في داخلي، وأسقط ما يحمله من رسائل، فلم يعد معلماً ينتظره تلامذته كلّ صباح.

كان كلّ شيء غائماً حولي، وكنت أرى من حولي خيالات أشباح أراها لأول مرة تحاول أن تجعلني أنهض عن الأرض، وتمسح خيطاً رفيعاً من الدم الذي نز من أنفي ووصل إلى جوانب فمي. ولحظتها كنت ألمح رجل السوق يعتصر بقدميه آخر ما كان لدي من بضاعة، وشعرت بالرجل وهو يتلف حبات البرتقال وكأنه يتلف روحي ويستلها من داخل جسدي. لكنه لم يكتف بذلك، فلقد رأيته ينقض بشراسة على الأخشاب التي وضعت عليها بضاعتي، ليجعل منها حطاماً لا فائدة ترجى منه ولا ربح. ويومها أحسست بيد دافئة وحنونة تقتادني بعيداً عن السوق، بينما بقي رجل السوق ينظر شزراً نحوي، وهو يهدد ويرغي مثل جمل هائج، وأنا أغادر مكسوراً ذليلاً، وصاحب اليد الحنونة يردد على مسامعي: «الصبر زين... لا بدَّ ما تفرج، لا تزعل، شغلة السوق ما تسوى».

كانت لهجة الرجل غريبة بالنسبة لي، وكان يكرر كلماته وكأنه يحفظها عن ظهر قلب، لكنها أصابت قلبي، وسكنت في داخله. وشعرت لحظتها أنني أمام رجل سيكون له شأن كبير

في حياتي، وحينما رفعت رأسي ونظرت في عينيه، وجدت فيهما حزناً متأصلاً في قدمه، ووجدت في داخلي شعوراً طاغياً يدعوني كي أحبّ صاحبهما بكلّ ما أملك من حبّ، حيث غسل لي وجهي وأعاد ترتيب ملابسي، وأخذ مني عهداً ألّا أعمل بائعاً، ومن يومها لم أعد إلى ذلك السوق، ولم أعد معلماً أيضاً...

* * *

تعالي

«أنا اللي حاير بأمري، وأنت ولا على بالك، دمع عينك عليّ غالي، عجيبة دموعي تحلالك» أهز رأسي، وتنسل روحي، أنساها على درب درسته أقدامنا في ذات صعود إلى ذروة الحلم المشتهى، بينما تتابع كلمات تلك الأغنية «الناس حتى المنك وبيك، ما حد يقلي شبيك، ما بيك، كلمن يقول أنا اش عليّ، كلمن يقول أنا شبديا».

أتوه في شرود طويل مع خطواتك التي كان لها على الدرب وقع خاص، كموسيقا تعصف بي من كلّ الأنحاء، تجعلني منتشياً بذلك البهاء الذي يشع من عينيك، حين كانت دنياي جنة مورقة، تتفيأ في ظلالها نفسي الهاربة من وهج الهاجرة في عز الظهيرة والطامحة في الوصول إلى عينيك، وقد كانتا كلّ همي وبغيتي.

ويا امرأة استثنائية تطوف بروحي في هذه اللحظات تعالي نعيد الزمن إلى الوراء، أشبك يدي بيدك، نجعلهما في عناق لا ينتهي، ثم نسير على ذلك الطريق الواصل بين قريتي معرية وعابدين.

تعالي فالمسافة التي سنقطعها ليست ببعيدة، وعلى يميننا ونحن نتباطأ في الخطا تسترخي قرية العارضة، سنتجاوزها لنرى أشجار الكينا التي تختلط مع أشجار البلوط والبطم والعبهر والزعرور والسدر الرابض على كتف وادي الرقاد، والتي تمتد إلى عمقه الأسطوري الساحر، تعالي ولا تترددي فقد أقنعتك مرة وعرجنا إلى هناك، لنقف بين تلك الأشجار، نراقب أرض الجولان المحاذية لذلك الوادي، ويومها سرقت منك قبلة قصر زمانها، ودامت حلاوتها، وستبقى إلى أن يغيبني الأجلُ ويجثمُ فوق صدري.

ما أجمله ذلك الطريق، كنت أحدثك ونحن نسير فوقه عن خطر ما، أحذرك بجدية من ذلك، فتتمسكين بي وتقتربين مني، فانتهز تلك الفرصة وأضمك إلى قلبي وصدري أكثر. تعالي نجرب ذلك ثانية ودائماً، أو تعالي نمثله على الأقل.

لا يعجبك هذا! تعالي نضغط على الزمن، سأقف على الجانب الأيمن من طريقنا الغالي وأنت ستمرين بالقرب مني بعد أن أكون قد اقتلعت عدداً من أعواد الحمص الخضراء، سأتظاهر أنني أتسلى بأكلها وأتشاغلُ بها عنكِ، وإن لم يرق لكِ ذلك، سأنتقل إلى الجانب الآخر من الطريق متكئاً على رفشي والعرق يتصبب من

جبيني أرقبُ خطوات غزالة ممشوقة القد تمر من هناك، وقلبي يخفق معها، يكاد يفر إليها من بين جوانحي، يرجوها ويتوسل أن تخفف من خطوها قليلاً، أو تتجنب ذاك الدرب لأنه بات يحسده ويغار منه، أو لعله صار يتمنى نفسه درباً تعبره صباحاً وحين تؤوب في المساء يتمطى تحتها بكلّ سعادة وهناء.

ويا وليفتي لا بدَّ سأنتبه حين تتجاوزني موسيقى الخطوات المنسربة إلى داخلي، سأركض تاركاً الماء القادم من سد عابدين يخرب شتلات البندورة التي زرعناها في أثلامها حديثاً. لا يهم حبيبتي فقد كنتِ في نظري كلّ الغلال التي تعوضني بمواسم فرح وفيرة قادمة. سأسرع إلى دراجتي النارية المركونة إلى جانب الدرب، وأهرع إلى والدك الذي كان يرافقك في بعض الأحيان، سأوصله إلى المنزل، وأعود إليكِ بسرعة الطائر أيتها المهيومة كي أعرض عليكِ توصيلة مجانية تنتعش فيها روحي المحمومة بك ولو لدقائق معدودة، فهل ستوافقين على ذلك؟.

تعالي نضبط الزمن، أو نتحداه حين نقبض عليه متلبساً يتلصصُ على أسرارنا ويهتكها لنقهره، ونتجول معاً ومن جديد في تلك السهول الفسيحة بين قرانا الساهرة على الحلم، وفي المساء قد

نتقاسم معاً قرص بندورة مسحنا عنه الغبار والكبريت تواً، سنفعل ذلك كما في الصباح حين قطفنا حبات من الخيار التي زادت نداوة الصباح من طعمها اللذيذ، وسأتقصد وأنا أقتسم معك ذلك أن أكل من المكان ذاته الذي وضعت فمك عليه، ستلاحظين ذلك حتماً وتضحكين فأنت لماحة ستكتشفين حيلي التي لم تكن تنطلي عليكِ يوماً إلا بإرادتكِ.

أشتاق لضحكتك الآن، ولصوتكِ، وأنت ترددين وابتسامتك التي لا أنساها «حول علينا، حول، ما يهمك كثر سياقي، مر الليلة نتعلل، مثل أهلي ما تلاقي».

وكم من مرة تعللنا فيها معاً، وهأنا أتذكرها الآن، وما زلت أنتِ سميرتي التي أنتظر أن تحضر دائماً متوسماً أن ينال الصابرون على البعد مرادهم في دنيا شيبت رأسي، وما من حل أمامي سوى صبر يشبه صبر الأشجار على الشتاء، وصبر الغريب على غربته ومنفاه.

* * *

مدير دائرتنا يقطب حاجبيهِ كلما رآني، أو لمحني في الدائرة. أصبحتُ أشعر أن وجودي، أو رؤيتهُ لي تسبب لهُ ضيقاً نفسياً يجعلهُ معكراً طوال اليوم. يجن جنونهُ إذا ما تأخرتُ بسبب المواصلات لبضع دقائق حيث يقول رافعاً يدهُ إلى أعلى، وكأنه يستسلم لعدوٍ يباغته: «أنا فقدتُ الأمل في إصلاحك... أنت حالةٌ ميئوسٌ منها... عدم التزامك بالدوام أمرٌ شبه يومي... لا تقوم بعملك كما يجب، وكما هو مطلوبٌ منك».

يحيلني إلى المدير العام، وذاك يحيلني بدورهِ إلى الرقابة الداخلية التي لا تتوانى في توجيه عقوبات الحسم من الراتب لعدة شهور...

أحبسُ في داخلي دمعاتٍ كالجمر، وأبحثُ عن شجاعةٍ افتقدتها منذ سنوات، أتلمسُ داخلي، فلا أجد غير جبانٍ فقد رجولتهُ منذ أن بدأ يفكر بلقمة العيال. مدير دائرتنا لم يكن يتوقف عن إعطائي

وغيري من الموظفين المواعظ والدروس، وربّما المحاضرات عن نضال الشعوب وثوراتها. أسباب تطورها وسعيها الدائب لرقيها وتقدمها، غيّر معاملتهُ لي بحيث أصبحت قاسية لا تحتمل تأجيل العقاب بعدما عرف بوسائلهِ التي لا يعلمها إلا الله بمعرفتي لموضوع الرشاوى، والسرقات التي تحدث في الدائرة.

أسيرُ والهواجس تملأ رأسي هذا الذي أحسبهُ في أحيان كثيرةٍ مفصولاً عن جسدي، أفكر في أمر هؤلاء الرجال الذين ومن موقع كراسيهم الفخمة لا يتوقفون عن مساومة الضعفاء على قوت عيالهم وأسرهم، إنهم كالوباء الذي لا يتوقف عن الانتشار والتوسع. حاولتُ مراراً وأنا أدخلُ عليهِ بابتسامتي العريضة أن أُفهمهُ أنني من جماعة «الحيط الحيطو يا ربي الستر» من دون جدوى.

تضيق الحياة أمام عيني. تحزمني بحبالٍ لا فكاك منها ولا انعتاق، أرددُ كلماتٍ سمعتها من صديقٍ حميمٍ التصقتُ بهِ كجزءٍ من نفسي وروحي أيام المحن والأزمات، أرددها كصلاةٍ أو تراتيل لا بدَّ منها، يصل بي الأمر إلى كتابتها وتعليقها على أحد

جدران الغرفة، تبدو لي على الرغم خطي السيئ مثل لوحةٍ إلكترونيةٍ تدور فيها الإضاءةُ من دون توقف، أقرؤها بصوتٍ مسموعٍ أحياناً، وبصوتٍ خافتٍ في أحيانٍ أخرى، أحسُّ في داخلي شيئاً يدور كما تدور الإضاءة في اللوحة المتخيلة، أقرأ كلمات صديقي التي تقول: «إذا كانت بعض الكراسي ملوثة، فأيُّ سرابٍ وأيُّ خواءٍ وقتها سيكون لوطنٍ يبنون أساساته على ملح وطين»؟ أشعر أنها تقول لي أشياء كثيرة ومتعددة أهمها أن صاحبها قديسٌ أو ملاكٌ لا بدَّ أن يعودَ إلى مكانهِ الذي قدمَ منه...

اللوحة التي كُتبت عليها الكلمات جاءت إلى أسفل الشق العرضي الذي يتوسط جدران غرفتي. بدا الشق بوجود هذه الكلمات كعلامةٍ فارقةٍ تميزُ غرفتي عن غرف القرية كلّها... بدا أكثر اتساعاً وبدوتُ وأنا أنظرُ إليهِ كمن ينفخُ في قربةٍ مخرومة،. سيتعبُ كثيراً وهو يحاول تعبئتها وستضيعُ جهودهُ سُدىً.

كان الشق يرمقني بعيونٍ وقحةٍ متحديةً تنذرُ بسقوط جدران غرفتي، وطني الصغير الذي حاولتُ أن أبدأَ معهُ منذ سنوات،

وعلى الرغم من كلّ إنذاراته لم أكن أخشى هذا السقوط المخيف والمرعب بعدما صرتُ ذاكَ البليد البارد الذي لا يثورُ لشيء وقد اعتادَ أن يرى السقوط في أصغر الأشياء وأكبرها. لم أيئس من محاولات الترميم تلك، وحين أتخيل صوته عندما قال لي في آخر مكالمة: «تعال إلى ألمانيا، وسأسلمك عملاً يليق بك، وسأجعلك تعيش فوق الريح».

في تلك اللحظات كنت أجتهد كثيراً في ترميم شقوق روحي، وأتساءل عجباً لماذا لم يضعني رئيس دائرتنا في مكان يليق بي عندما كان هنا، وقبل أن يهرب إلى هناك؟

* * *

ربما تمنيت الآن لو أعود وأشبه ولداً يحتل داخلي، ويعيش فيه حيث كان يجوس بناظريه أرض «الحوش» وغرف مسكننا الطيني باحثاً عن والدته عيوش، وعندما يتأكد أنها غير موجودة، أو مشغولة بأمر ما، يزحف إلى داخل قن الدجاجات، ويخرج ما بداخله من بيض ليحمله فرحاً بنجاته من العقاب، ونجاحه في تحقيق ما يصبو إليه، وليتوجه به بعد ذلك إلى البقالية المتواضعة في أول الشارع.

أبو سليم ذاك الرجل الكريه، الطويل والأصلع الذي لا يتوقف عن مسح رأسه المعروق بفوطة يضعها على الرف أمامه، كان يبدل وجهه البشوش عندما يراني داخلاً بما غنمته من البيض. وبحسه الفطري وتبدل لون وجهي وهو يسألني عن الوالدة يدرك أن ما أحمله مسروق، ولذا فهو لن يدفع لي أكثر من عشرة قروش، أو ربما ما يساويها من «الهريسة» وإن زاد وأخذته حمية الكرم فلسوف أخرج من عنده «بكمشة» من حبات التمر.

لم أكن أتوقع منه أكثر من ذلك، فهو بخيل إلى حد لا يوصف، ويقال إنه كان يعد حتى أرغفة الخبز والبيض على زوجه «فريزة» عندما ينوي مغادرة المنزل إلى مكان ما، وعند عودته يتفقدها ويحاسبها إذا كان النقص كبيراً. كثيراً ما كانت تنشب الخلافات بينهما، لأنه يريد منها أن تأكل الزعتر مع الخبز من دون الزيت، وكثيراً أيضاً ما سمعه الجيران يردد إن الماء مع الخبز يمكن أن يكون بديلاً عن الزيت في أكل الزعتر. وعبارته في إقناع زوجه، أو غيرها أصبحت مشهورة، حيث يردد منهياً حديثه: «أحسن ما بدفع من جيبتي».

وبغض النظر عن بخله الذي يتحدث عنه أهل شارعنا، ويتندرون به، فأنا على أحسن الأحوال، لن يكون نصيبي من تلك الغزوة، أو ما شابهها من غزوات سوى قطعة صغيرة من الحلوى، أو بضع حبات من التمر، ألوكها في فمي، وأحاول الاحتفاظ بحلاوتها أطول مدة ممكنة، والسبب في حصتي المتواضعة يعود إلى عبود وتهاني شقيقيّ الأكبر مني سناً واللذين ينتظراني قريباً من الدكان.

هما كانا دائماً من يحرضاني كي أقوم بتلك السرقة، وحينما أتردد في تنفيذ ما يطلبانه مني، كانا يقطعان لي الوعود بأنهما سيكونان معي، وسيراقبان أمي جيداً، وينبهاني قبل دخولها الدار، ولكنهما كانا يتنصلان من ذلك كلّه عندما تقع الواقعة، وتقبض عليّ متلبساً بفعلتي تلك.

كنت أشعر بذلك قبل أن يحدث، حيث يصبح حديث عبود وتهاني همساً، ثم أسمع صوت خطواتهما وهي تتباعد، ليدخلا إلى المنزل ويتظاهرا بالنوم، أو يقفزا من فوق حبالة الحجارة المحيطة بالمنزل، وليقولا أثناء اعترافاتي أمام الوالدة بأنهما كانا خارج المنزل.

كنت وأنا داخل بيت الدجاجات ألمح قدمين ضخمتين تتقدمان نحوي، وعندها أحاول أن أحبس أنفاسي كي لا تشعر بوجودي وطرف ثوبها الذي تحركه الريح يؤكد لي أنها قد شكت بوجود شيء غير طبيعي.

ديكنا المغرور نافش الريش بخبطات قدميه وحركة جناحيه المتواصلتين كان يدفع الدجاجات كي يصدرن مزيداً من «الوقوقة».

ذلك الديك اللعين كثيراً ما فضحني بحركاته وصوت دجاجاته، وكثيراً ما حلمت أنني أنتقم منه شر انتقام، لأنه بما كان يفعله يدفع بأمي عيوش كي تنظر من باب القن نحو الداخل، وفي المسافة الوسط بين بابه ونهايته تلتقي نظراتنا، وعندها أندم على وقت فاتني ولم أهرب من عقابها، وألعن في سري من ورطني ودفعني إلى ذلك، وأصب جام غضبي على حماقتي، فهي السبب في ما وصلت إليه.

بداية الأمر تطلب مني الخروج، وعندما أماطل، أو أرفض، تأخذ وضعية الجلوس، ثم تمد يدها وتشدني من شعري، ولأغدو بين يديها مثل طائر منتوف الريش.

كانت وهي تضربني تردد حانقة: «سرقت البيض، وبعد قليل تريد أن تأكل، من أين سآتي لك بالطعام، قل؟».

وعندما أشير إلى تهاني، وعبود، تبحث عنهما فلا تعثر لهما على أثر، عندها تقول جازمة: «سيعودان... الأرض لن تنشق وتبتلعهما».

تتوقف عن ضربي قليلاً وتضيف: «وين بدو يروح عبود وتهاني يعني؟ الذفال[1] سيحوشهم».

مرة زاد غضبها عن حده، فوضعت يدي بين حجرين وضربتني بأحدهما، ثم تركتني أصرخ من شدة الألم وهي تقول: «هكذا أفضل، كي لا تصبح حرامي».

أمي كانت في فترة طفولتنا الأولى، تعدنا كي نكون شرفاء أكثر من اللازم لزمن تعاظمت فيه سطوة اللصوص والقتلة والسراق والمرتشين ولو أنها تركتني أتدرب على تلك المهنة، لغدوت الآن شخصاً آخر. أقول: لو.

ولو لا تفيد وخاصة بعد أن مضت، ومضيت.

* * *

(١) **الذفال:** قطعة مربعة من القماش يوضع فيها الخبز.

مقابلي على المقعد المواجه لخيبتي كان يجلس إلى جانبها بكلّ فخر واعتزاز، وأنا أحاول كلّ جهدي اصطناع الفرح كي لا أبدو مهزومة مخذولة، أحاول ألا تسقط دمعة حرصت طوال عمري أن تبقى كآخر رمز للمقاومة ولو أنني أشعر أحياناً أنها سقطت وانتهى الأمر.

البارحة كان يجلس إلى جانبي، يهمس في أذني، ويضحك لي، يسمعني أجمل الكلمات، واليوم يحمل سكينه الغادرة، ليطعن بها جسدي وروحي معاً تاركاً ضحيته بقايا إنسانة، امرأة مهزومة تلم شتات الذكريات البعيدة، ويدير ظهره مولياً إلى أخرى.

ها هو الآن يمسك يدها، يهمس لها. تبادله همسة أخرى، ثم يتضاحكان.

أحاول بكلّ ما أملك من حواس أن ألتقط شيئاً، كلمات، أو بضع كلمات، لعلي استكشف الفارق بيني وبينها، أو لعلي أجد له عذراً أقنع به نفسي. منذ زمن وإحساس الأنثى الذي لا يخطئ

غالباً يحرضني على الانعتاق من سجنه غير إن كلماته المعسولة كانت تجعلني فاقدة لكثير من التعقل.

أهمس بحنق وأنا أصوب النظر نحوك: أي كاذب أنت؟ وأية امرأة غبية مخدوعة أنا؟...

يتسابق الدمع من داخلي، يحاول الخروج، وعندما أحاول حبسه في المآقي يتهاطل مجدداً ويتخذ درباً آخر، يكاد يفجرني ويمزقني إلى أشلاء مبعثرة. أحاول أن أكون قلعة تلمس الأرض وتعانق السماء، مرت من جانبها خيول الغزاة من دون أن تستطيع الدخول إليها، أو الاقتراب منها.

هكذا أتخيل نفسي للحظات، وليتني كنت كذلك. يزداد صخب الموسيقى، وأزداد ضياعاً. أهز رأسي مثل أمة ذليلة: رجلٌ أنت وتتقن فن التضليل والخداع والكذب، صياد يعرف كيف ينصب شباكه وينتظر بكل صبر حتى يأتي صيده المناسب.

أسترق النظر من جديد نحوهما. ما أصعب هذا، وما أمض أن يسرق الواحد منا شيئاً يشعر أنه من حقه. أرقب عينيها المتعلقتين بك، بعضاً من وجهها وشعرها المتناثر. ليست أجمل ولا أفضل

مني على كلّ حال، هكذا أظن، فلا تفرح كثيراً. أكاد أصرخ سائلاً: ما الذي أعجبك بها؟.

كنت دائماً أرسمك ملاكاً، أو قديساً قادماً من عالم آخر، فهل علي أن أندم الآن؟ وهل يفيدني الندم في شيء لو أنني فعلت؟. وأنا الذي تعلقت عيناي بك كما هي الآن، ونثرت شعري ونفسي أمامك، تنازلت، وسقطت أمام احترافك لصناعة الكلمات، فلماذا أقتل نفسي لوماً؟ وقد كانت قناعتي أن هذا زمن التنازلات التي لا تتوقف عند حد من دون إدراك أن السقوط يؤدي إلى الهاوية التي أوصلني، أو أوصلت نفسي إليها وجعلتك من دون أدنى شعور بالخجل تسحقني، تسقطني من حساباتك.

لم يكن بيننا حواجز، فلماذا وضعها سداً منيعاً؟ أبعدها وتعال إلى جانبي، أو ابق في مكانك سآتي إليك. أهتف بذلك من دون جدوى، لا يخرج صوتي، تحرق جوفي الكلمات، تقف عالقة هناك في حلقي كي تتقاسمني مع الهموم والأحزان.

أقر أنني خسرت كلّ شيء في معركتي مع الحياة، وأنت آخر الخسارات، وأولها.

أرقب المشهد بكلّ ما أملك من حواس. على الأنغام الناعمة يتراقصان ويتمايلان. تتفجر غيرتي كلّها، تنهش قلبي، ثم تمتد لتحرقني وتأكل صدري وتقضي على كلّ شيء. أكاد أقفز، لأنتقم ولو بطعنة واحدة، أسدد حساباً، ديناً لا بدَّ أن يدفع، لكن جسدي يرتجف، ويدي لا تطيع أمري، يسيطر علي الخوف، هذا اللئيم الذي ولد مذ ولدت أنثى يكبلني. أطلق ابتسامة بلهاء وأقنع نفسي بعدها أن ما حدث شيء عارض ولا بدّ سيزول سريعاً. فأيّ امرأة أنا؟ تحتضر. يحضنها الموت ولا تصدق، لتجعل منه أملاً.

أي ندم هذا الذي يعشش في داخلي مثل زائر ثقيل، ولماذا أندم بعد أن مضيت في طريقك؟.

صدى صوتك يأتي من بعيد، من الماضي السحيق. أترنم معه طرباً، أرقص عليه حزناً. ويلك... لا تقترب. لا تهمس في أذنها. أمقتك، أكرهك، أتمنى موتك، وأتمنى ألا يصيبك مكروه. أواسي نفسي أن تعود لي في زمن ووقت ما، أو لا تعود، لكنني سأنتظر على كلّ حال، فليس أمامي من سبيل غيره.

* * *

وجع...
وخديجةٌ على البال

قلتُ لها على الهاتف: يمكن أن نلتقي يا خديجة.

تذكرت الآن أنني قلت لها ذلك، وكأنني قد مررت في وقت لم أكن أذكر فيه شيئاً.

ثم تذكرت أن خديجة كانت تقطع ذلك الجسر قادمة بخطواتها المديدة وطولها الفارع من درعا البلد، لنلتقي مع غيرنا في ذلك البناء الرابض عند كتف الجسر في درعا المحطة. وكانت تلمنا تحت جناحيها كلّ صباح، وكأنها عصفورة جاءت تحمل الرزق إلى فراخها.

تعدُ لنا الشاي أولاً، ثم تفرد أرغفة الخبز على طاولتها، وتضع عليها اللبن وقطع صغيرة من حبات البندورة التي فرمتها، وبعدها تخرج أقراص الفلافل الساخنة من كيسها الورقي وتوزعها على تلك الأرغفة، وعلى عجل ترشها بالملح وتعصر عليها القليل من

الليمون، تلفها وتناول كل واحد منا وجبته الصباحية المقررة سلفاً في كلّ يوم.

كانت تخبئ حصص الغائبين، أو الذين لم تمكنهم الطرق والمواصلات من الوصول في الوقت المحدد، تضعها في خزانتها وهي تنظر نحونا وكأنها بذلك تعلن وصايتها وتحذرنا من الاقتراب من تلك الحصص قائلة: «حرام حصة الغائبين».

أما الذين يرفضون تناول طعامهم الصباحي بحجة أن نفوسهم مسدودة عنه، أو لأنهم غضبوا من أمر ما في الدائرة، أو لأن المدير قد وجه لهم ملاحظة بشأن سير العمل، فكانت خديجة تسترضيهم.

كنا نرقبها وهي تنحني أمام الأبواب بسبب طولها الذي يزيد على الرمح، والذي لم يؤثر على رشاقتها، بل زادها حسناً وبهاءً، حيث كانت ابتسامتها تسبقها وهي تحدث هذا وذاك، وكان أيّ واحد منا يخجل أن يرفض طلباً لها، وهذا ما كان ينطبق على رئيس الدائرة، ومديرنا العام في كثير من الأحيان.

هي شعلة دائرتنا المتوقدة وغالباً ما كانت تملك معلومات كثيرة عن أغلب موظفي الدائرة، تعرف حكاياتنا بالتفصيل وما يعترضنا

من مشكلات، ولذلك فهي سراً تشجع هذا على الإقدام على أمر ما، وتنهى ذاك عن أمر آخر، ومع الأيام اكتشفنا صواب رأيها وسداده من خلال ندم الزملاء الذين خالفوا نصائحها، ومع نهاية كلّ يوم لابد أن نمر على مكتبها، لتطرب أسماعنا وهي تدعو لنا بالتوفيق، أو توصينا كي ننتبه أثناء الطريق من الظلام وأولاد الحرام الذين يبحثون عن الشر ويهللون من أجله.

ولما زاد الشر، وتمادى أصحابه، لم نعد نجتمع في ذلك المبنى، بل فرقتنا الأحداث وصار كلّ واحد منا في اتجاه، أو تحت غيمة بعيدة عن الأخرى كما يقال.

وحين استبد بي الشوق لرؤيتها، وقد شعرت أنني بحاجة ماسة لحنانها ولوصاياها، لبوصلتها التي تشير لنا دوماً نحو الاتجاه الصحيح، وفي غيابها تاهت خطواتنا على الدروب.

اشتقت لوجهها المدور الذي يشبه أرغفة الخبز الناضجة صباحاً، ولعينيها اللتين تشبهان خضرة بلادنا. ولامرأة اعتبرها أمي الثانية وأختي الكبرى وكلّ الحنان الأنثوي الذي يختصر في خديجة، كنت بحاجة لدفء يديها وكلماتها التي تبشر بانجلاء الغمة وحلول السلام الذي نحلم به.

قلت لها: اشتقت لك يا خديجة. مر وقت ولم أركِ فيه، لم أسمع صوتكِ ونصائحكِ، يكاد الشوق أن يفتك بي يا امرأة.

تذكرت الآن أنني قلت لها ذلك، وكأنني قد مررت في وقت لم أكن أذكر فيه شيئاً، وحين بقيت صامتة كعادتها عندما تتيح لنا فرصة القول والكلام أضفت بثقة واطمئنان: يمكن أن نلتقي يا خديجة في شارع هنانو، أو عند دوار المحافظة، وقد نشرقُ إن أردت إلى ساحة بصرى، أو نقف عند دوار الحمامة، وقد نبتعد أكثر لنقف عند أول المخيم.

عرفت سرّ صمتك الآن يا خديجة، أنت تريدين أن نلتقي في الكراج القديم، أو ربما تريدين الجلوس في حديقة السحاري، لتطلين من هناك على الوادي وعلى البلد كما أيام زمان.

لماذا لا تهونين عليَّ الأمر يا امرأة؟ لماذا لا نلتقي في حي الكاشف، أو بالقرب من الكنيسة مثلاً فهما الأقرب الآن لمن هو قادم من دمشق مثل حالي؟ .

اسمعيني جيداً يا خديجة، سنذهب إلى حديقة المطار، أو قد نغربُ إلى الضاحية وقد يحضر معي صديقي محمد، فهو يشتاق لك ولنصائحك أيضاً.

لا، لا تحضري معك أي طعام يا خديجة، ففي الضاحية منزل صديقي عمار وفيه قد نجلس ما طاب لنا من الوقت.

أذكر أنني قد قلت كلاماً كثيراً في تلك المكالمة، لم أعدُ أذكر غيره الآن، وأنا وخديجة كان يمكن أن نلتقي في كلّ الأمكنة التي تعيش في داخلي، وكان يمكن أن نلتقي في أمكنة أخرى لم أتطرق لذكرها لنقص حكايا الوجع والتشرد، لولا ذلك الانفجار الذي فرق بيننا.

كنت دائماً أرقب طولها المدهش وخطاها الواثقة صاعدة إلى درعا البلد، أو عائدة منها، تنز دمعة، وينفتح جرح، أهمس: كم تشتاق لك روحي يا خديجة، أكادُ أجنُ حين أتخيلُ أنني لن أراكِ ثانية يا امرأة.

* * *

لو... والذئاب

لو كان لدي إخوة بالتأكيد سيسمعون صراخي ويستجيبون لصوتي المستغيث.

لو أن لديّ أخاً واحداً فقط كنت استنجدت فيه كما يفعل الرجال.

ولو أن لدي أخت واحدة كانت ستزغرد فوق رأسي، فربما يرعب صوت زغرودتها من يريدون تمزيقي، ويتفرق قطيعهم الطامع بتناول لحمي وامتصاص دمي.

لو أن لي زوجة واحدة على الأقل كنت سأطلب منها كأس ماء أبرد فيه جوفي الملتهب.

الأصدقاء نسوني، ولم أنسهم. ألتمس لهم العذر إذا كانوا قد هربوا وتركوني وحيداً كعادتهم، لماذا أردد كلمة إذا، وأبقى على أمل مساعدتهم؟ هم بالتأكيد قد فعلوا ذلك، وطيف الحبيبة توارى، ثم اختفى، يبدو أنها قد لحقت الأصدقاء وتخلت عني. وأنا أغرق في

العرق، ألهث متعباً بأنفاسي الحارة كأنها ستخرج مني من دون عودة، «أتشردق» بها وأكاد أختنق، وهذا ما يقلل المسافة بيني وبين الذئاب التي ابتلعت أرضي والمنزل دفعة واحدة، ولذلك بدوت عملاقاً في منظار نفسي، لأنها لم تطلني حتى اللحظة على الرغم من أن المسافة بيننا تقصر، وتقصر.

أشد الغطاء وأركض، والذئاب تركض من خلفي. ذئاب كالحة السواد لا يبين منها سوى أنيابها التي يسيل لعابها مثل حمم تقذفها نحوي، وعيونها الحمراء تتلامع في تلك العتمة الرهيبة، تكاد أن تدركني وهي تشبه في انطلاقتها السهام. ينتابني شعور للحظات أنها ليست ذئاباً، بل كلاباً تسير مسعورة من غير هدى، أفكر لو أنني ألوذ في مكان ما، فهي قد لا تجدني، وتتابع ضلالها إلى أمكنة أخرى. آه لو أن الأرض مربعة لكنت قد اختبأت في زاوية منها، لكنها مستديرة، لذا صار عليّ أن أركض في هذا السهل الفسيح والمكشوف فليس من سبيل لمواجهتها وحيداً.

الذئاب تبغت في الليل وأنا وحدي، العرق، وأنفاسي، والذئاب فقط وحياتي لا بدَّ ستكون الثمن لأنها الأرخص، ولأنني وحيد،

والذئاب لا بدَّ أن تفتك بي، هذا هو قانونها وديدنها، وخاصة حين تشكل قطيعاً.

آه أرددها دائماً. لو كنت امتلك سلاحاً، لو أن لي أخ يحمي ظهري، لنصبت رشاشي عند باب داري، ودافعت عنها. لا أحب استخدام السلاح، ولست ممن يحبون القتل، ولكن الذئاب إذ لم تقتل، ستقتل.

استيقظت مذعوراً وكأن أسياخاً من النار قد ركبت في أعصابي، وكان من حولي يضحكون بملء أفواههم، كنت أصرخ بأعلى صوتي: الذئاب، الذئاب. كانت ضحكاتهم تزداد ارتفاعاً، وكل واحد منهم يصفق يداً بأخرى، فتحت الباب وأشرت إلى سور المنزل، حيث كانت الأيدي صاحبة الأظافر الطويلة تتسلقه وما هي سوى لحظات حتى تمكن ذئب من القفز إلى باحة الدار، ثم تبعه آخر، وآخر.

قلت: انظروا، وصلت الذئاب منازلنا.

قالوا: لا نرى.

نظرت إليهم، كانوا يغمضون العيون.

قلت: افتحوا أعينكم وانظروا.

قالوا: لا دخل لنا، طريقها ليست إلينا، هي عابرة سبيل فقط.

ومن يومها والندم يأكلهم، لأنهم اعتقدوا ذلك.

* * *

لوحة لمدينة تحترق

بعد انقطاعها لفترة طويلة عن القدوم إلينا في المكتب، فاض بي الشوق، ولم أعد أحتمل غيابها، وكانت الشوارع والحارات والأسواق ميداناً واسعاً لأبحث عن امرأة لا أعرف عنها سوى اسمها الأول وجسدها الناحل ووجهها الذي يشبه وجه عصفورة، لا أعرف سوى عينيها الخرافيتين الناعستين وصوتها الذي يعزف على قيثارة القلب وتثمل به العقول، بحثت عنها طويلاً ليكون بحثي بديلاً عن حضورها، وأنا أعرف أنه من دون جدوى كأنما أتشاغل عنها بها.

طلبت من ناظم عندما تعرفت إليه أن يرسم لي صورتها، وصفتها له بكلّ دقة، لكنه رسم امرأة أخرى طويلة ترتدي ثياب الرقص، امرأة بيضاء اللون ذات وجه واسع بعينين خضراوين وشعر يكاد يلامس أردافها.

سألته حين رأيتها في بروازها الخشبي أول مرة:

- هذه ليست سماح التي قلت لك عنها يا ناظم، ليست تلك التي وصفتها لك بدقة.

بقي صامتاً فأردفت:

يا رجل، أنا لم أقل لك إن سماح بهذا الطول، وعيناها ليستا خضراوين، ثم من قال لك إنها ترتدي هذا اللباس الفاضح؟ من وصف لك شعرها حتى تجعله بهذا الطول؟ قل... أنا لم أصف لك شعرها لأنني لم أره، سماح كانت تضع على رأسها حجاباً، طيب، قل لي أيها الفنان لماذا جعلتها بيضاء ووجهها واسعاً على الأقل؟... سماح كانت ذات قلب واسع، كانت ذات جمال داخلي يشع منها، ليرتسم على محياها، كانت امرأة حين تمشي يزداد نبض الأرض ولهاثها، قل لي يا ناظم ألا تستطيع رسم الأشياء الداخلية لمن أصفهم لك؟.

ناظم لم يكن يعير أسئلتي اهتماماً كبيراً. كان ينظر إلى الصورة. يحدق فيها ملياً وكأنه يراها لأول مرة، أو كأنه قد اكتشف وجودها تواً، ثم يهز رأسه ويقول بصوت خفيض وبلهجته العراقية: «ايه، كل شيء يتغير».

.....

لست الوحيد الذي كان وما زال، وسيبقى يهوى العيون ويموت فيها، ولست أيضاً الوحيد الذي ذاب قلبه بامرأة اسمها سماح،

فلناظم صديقي قصص وحكايات كثيرة مع العيون، وله فتاة وحبيبة اسمها سماح.

كان يموت شوقاً إليها، كنت أحس بذلك، وأشعر بحنينه عندما يتركني معتذراً ليغادر إلى مطبخه الصغير من أجل أن يعد لنا القهوة التي تعتبر مشروبنا المفضل والذي لا يعادله مشروب آخر، وكنت أثناء ذلك أسمع، أو بالأحرى استرق السمع إلى صوته وهو يدندن بأغنية ياس الشهيرة:

«ناوي قليبك هجر قليبي ناوي

ع الفرقا والهجران ما ادري اش غاوي»

كنتُ في تلك اللحظات أدرك أن جسد ناظم هو الحاضر في هذا المكان، وأن روحه في مكان آخر تطوف حول من أحبها يوماً، حيث تعانقها وتتشمم رائحتها، وكان ما يؤكد كلامي هذا انسكاب القهوة في مثل تلك الحالات، لحظتها يعود ناظم من شروده الطويل، ليسكب ما تبقى منها، ويعيد صناعتها من جديد، وليكمل مردداً بصوت أعلى:

«حبك غدا بالروح نهر وجاري، منك محبة تفوح بس اتداري
تجافيني ليش عيوني وأنا الصابر، صدقني كلش صعبة كسر الخاطر
أتمنى حبك حه وقلبي النار، ترجع ليالي الهنا والحنية».

صوت ناظم العذب كان يشبه من حيث حزنه وألمه صوت سماح، كان صوتاً يقطع أنياط القلب ويسافر بالروح إلى عوالم بعيدة وأرجاء أكثر سعة ورحابة. ناظم كان صاحب صوت شجي وريشة سحرية لا مثيل لها، كان رجلاً جميلاً في كلّ شيء حتى في شكله الخارجي على الرغم من الندوب التي في وجهه وآثار الرصاصات التي اخترقت قدميه أثناء حرب الخليج، وكان أيضاً صانعاً محترفاً للقهوة التي يلذ لي تناولها من يديه.

دائماً كان يأتي بثلاثة فناجين من القهوة حيث يقول مختصراً كلماته كما هي عادته: هذا لك، وهذا لي، أهلاً وسهلاً.

وعندما أسأله ممازحاً عن الفنجان الثالث الذي وضع عليه الغطاء وتركه على الطاولة يقول بكلّ جديته: هذا للغائبين عن هذه الجلسة والحاضرين دائماً في قلبي.

خيبة ناظم بحبيبته أو بسماحه كانت كبيرة جعلته حزيناً ومتشائماً لفترة طويلة من الزمن، كان خلالها يعتبر الحبّ أكبر كذبة على وجه الأرض، وعندما كانت تحتد نقاشاتي معه عن المرأة والحب وارتباطها كرمز من رموز الخصب والعطاء يقول منفعلاً بلهجته الخاصة: المرأة سراب جميل يخدعنا «دشرني من هالسوالف، هالحين، الله يخليك، اتركني من كل الخيبات وخلينا نحكي بالفن».

كان قد رسم لوحات عديدة لسماح حبيبته، واحدة منها وهي بثياب المدرسة، وأخرى بشعر طويل، وثالثة وهو يقف معها على ضفة الفرات. وعلى ما أذكره أن سماح عندما اتصلت به آخر مرة كان يضع على آخر صورة رسمها لها عدة شرائط سوداء. كانت هذه الصورة نفسها التي طلبت منه أن يرسمها لسماح التي تسكنني، لكنه رسمها لسماح التي تسكنه هو قبل أن ترتدي ثياب الرقص، وأنا إلى الآن لا أدري من أين حصل ناظم على تلك الصورة التي تشبه كلّ الملصقات الإعلانية التي توضع على أبواب الملاهي والمطاعم والمحال التجارية؟.

وما أذكره أن ناظم وهو يشق ذلك الملصق الذي عليه صورة سماح بعد أن حول صورتها إلى لوحة فنية وضعها في إطار خشبي مع لوحات أخرى قد قال لسماح بعصبية ونزق: «خلص سماح اللي أعرفها ماتت، أنت الحين وحدة ثانية أنا ما عرفها، زين ها لحكي ولا ما هو زين؟».

ثم أغلق الخط بعصبيته نفسها التي عهدتها منه، وراح يمسح برفق وحنو صورة لسماح وهي ترتدي ثيابها المدرسية، وساعتها وأنا أراه على هذه الحالة خلت أن دمعاً ينز من عينيه ويتهاطل عميقاً إلى داخله الذي يشتعل ناراً.

يومها لمته كثيراً على تصرفه الذي فيه الكثير من الإهانة والمذلة لإنسانة كان بينه وبينها كلّ ذلك الصدق والمحبة ودفق المشاعر الجياشة، لكنه لم يرد على كلامي ولو بحرف واحد، بل بقي يضم إلى صدره تلك اللوحة التي رسم عليها صورة سماح وهي بثيابها المدرسية.

كنت دائماً في نقاشاتي الطويلة مع صديقي ناظم ألتمس لسماح ولغيرها العذر لأننا كبشر في هذه البقعة من الأرض مستهدفون

ومعرضون للموت المجاني من عدة قوى تبغي اجتثاث وجودنا واقتلاعنا، وكنت أدلل على كلامي وأنا أشير لناظم نحو شاشة التلفاز الذي كان يبث علينا صور الدمار التي تحدثها الأسلحة الذكية حيث تجعل الأبنية الآهلة بالسكان تغور تحت الأرض، كان يبقى صامتاً في أغلب الأحيان، وهذا ما يجعل ساحة النقاش مفتوحة لي: هذه القوى يا صديقي تغلغلت إلى بعض عقولنا، وإلا ما تفسيرك لتفجير يحدث في سوق شعبي ويحصد معه مئات الضحايا؟.

كان أحياناً يخرج عن صمته المعتاد ويقاطعني: «يا حبيبي أنا مو غريب، أنا أدري بكلّ اللي يصير، أنا فاهم اللعبة زين، بس سماح اش اللي يخليها ترقص؟».

- كلنا رقصنا يا عزيزي ناظم، ونحن نشهد السقوط بأم أعيننا، كلنا رقص بطريقته، رقصة الموت، أو رقصة الذبيح الأخيرة، أو أي رقصة تشاء، لكنها رقصة من ينجو بجسده إلى أن يحين دوره، ليقدم إلى مذبحه، يراقب الجميع منتظراً أن يؤجل دوره، وليكون الآخر بدلاً منه، وسماح واحدة منا... ألم تهرب من الحرق والقتل والدمار؟ وبعدها ألم تحاول أن تهرب

من الجوع والعوز بعملها في ملهى ليلي؟ قل لي يا صاحب القلب القاسي لماذا لا تشفق عليها وتسامحها؟. ألا يتسع قلبك لهفوة يا رجل؟ هذا إذا اعتبرنا ما فعلته هفوة، على الرغم من أنني اعتبره حاجة ماسة للعيش.

يومها فاض به الكيل ونفد صبره، إذ أدار وجهه جانباً وكأنه يتجنبني ولا يريد الحديث معي، لكنه قبل أن يفعل ذلك قال وكأنه «يبربر» أو يحدث نفسه: «أني أستغرب طريقتك هذي بتبرير تصرفات وسلوك الآخرين»...

سماح دهستها سيارة عابرة، وهي تركض مسرعة هاربة من دورية شرطة كانت تلاحقها، وتريد القبض عليها، لأنها عملت راقصة من دون ترخيص، والمصادفة العجيبة أن ناظم عندما وصله الخبر كان يرسم لوحة لمدينة تحاصرها ألسنة اللهب وتتصاعد منها سحب الدخان، ويومها رمى فرشاة الرسم بعيداً، وراح ينتحب بحرقة ويردد كلمات يائس فاقد لكل أمل:

خلص، ماتت، سقطت، انتهى كلّ شيء.

* * *

يوبيل فضي
وطبقة حنونة

سدت السيارات والرجال الذين رافقوه مدخل بلدتنا، واجتمع هناك خلقٌ كثيرون لاستقبال ربيع، كان قد اشترى للرجال الذين رافقوه ثياباً رسمية أنيقة بعد أن حلق لهم رؤوسهم وذقونهم وأدخلهم إلى حمام السوق في المدينة، وكان يجيب على نظرات أصحاب محلات الملابس والحلاقة المتسائلة عن معنى ما يفعله وغايته من نظافة هؤلاء الريفيين وأناقتهم بقوله: «خذ المال ولا تسأل عن الحال».

استفاقت البلدة وكأنها تعود من سبات طويل على خبر مفاده فوز ربيع بجائزة اليوبيل الفضي وتسلمه لمبلغ مالي ضخم لا يمكن لعقل أحد من أبناء البلدة أن يتخيله، ولو وضع بين يديه لن يستطيع عده.

ربيع نجم تلك الحفلة الصارخة كان مندهشاً حد الصدمة مما جرى، فمن قال إن اتصال هاتفي بتلك المحطة الفضائية

واختياره بالمصادفة لرقم معين سيقلب موازين حياته بين ليلة وضحاها؟ من قال إن ذلك الاتصال سيجعله ثرياً يحسب حسابه في كلّ شيء، ويجعله يتموضع كرجل أول في بلدتنا وما حولها من بلدات؟.

ليلتها تناوب الطبل مع الدربكة في الإيقاع، كما تبادل عازف الشبابة مع عازف المجوز الأدوار بينهما، لتردد على أنغامهما أجمل الأغاني التي خصص أغلب الذين شدوا بها الحصة الأكبر منها لتكون في مديح الرجل الذي بدا في تلك الليلة أقرب إلى نجوم السينما، حيث الطقم الرسمي والشعر المسرح بعناية فائقة والحذاء اللامع والوجه «المسلفر» المدهون بعدد غير قليل من الكريمات المصنفة كماركات عالمية شهيرة، ولولا بحة في صوته وشامة كبيرة تتوسط ذقنه لكنا كذبنا أنفسنا ولم نصدق أن هذا هو ربيع نفسه.

كانت حركة يده اليسرى وهو يلوح بها مع ابتسامة فاترة هي التي تميزه ونعرفه من خلالها، وخاصة وهو يجلس على كومة القش الموضوعة في قاطرة يجرها أحد الجرارات الزراعية في

البلدة، أو عندما ينتهي من صب البيتون فوق منزل يبنى حديثاً، حيث يخلع كنزة الصوف السميكة التي ارتداها لتحمي كتفه من ثقل «تنكة» البيتون التي يصعد بها على السلم ليفرغها على السطح، كان يفعل ذلك بعد أن يأخذ أجرته من أي عمل وأن زاد على ذلك فقد يتبادل بعض الكلمات مع الذين جاؤوا ليتفرجوا على إنجاز هذا العمل أو ذاك.

أما في تلك الليلة فقد كان الوضع مختلفاً، فقد رقص مع الدبيكة، ووزع النقود على الكثيرين، وحياهم ومازحهم مرحباً بحضورهم. وفي نهاية السهرة قدمت أطباق الأرز مع الصنوبر، وقد وضع فوقها قطع لحم كبيرة، وكانت تلك ليلة ليس لها من مثيل مرت على البلدة، يتمنى الجميع أن يفوز في كل يوم رجل من رجالها بجائزة اليوبيل الفضي.

في الأيام التالية لم يعد ربيع يعمل أجيراً عند أحد، بل اقتصر نشاطه على الذهاب إلى المدينة والعودة منها ومن ثم التجوّل في البلدة والمشاركة في مناسباتها الرسمية، وفي الأفراح كان يوسعُ له كي يجلس في صدر المجلس، فإذا ما تنبه أهل الفرح إلى وجوده

ووضعوا رأس الخروف على الطبق الذي أمامه فنصيب ابنهم العريس سيكون عالياً من النقوط الذي سيتلقاه من ربيع. وإذا نسوا ذلك، فقد لا يتناول الطعام ويغادر المكان من دون أن يبارك للعريس أو ينقده ولو مبلغاً صغيراً بهذه المناسبة.

أول احتكاك مباشر لي معه كان عندما اشترى قطعة أرض بعيدة على الطريق الدولي تجاور أرضي، وقد بدأ ببناء قصر كبير فوقها، يومها أصر عليّ كي أتناول الطعام معه، وقد أحضر أربع دجاجات مشوية، أعطى اثنتين منهما لعمال البناء، ووضع واحدة بيني وبينه وقال: «تفضل ابن العم. تفضل» بينما انشغل هو بتقسيم الدجاجة الرابعة لكلبي الحراسة اللذين اشتراهما مؤخراً بثمن باهض من خارج البلاد.

يومها أردت أن أناقشه في مسألة الطريق التي توصل إلى أرضي والتي سدها بالحجارة ولكنه اختصر الأمر قائلاً: «أنت تستطيع أن تمر ساعة تريد يا بن العم، أما غيرك فلا».

أردت أن أقول إنه قد سد طريقاً، وهذا أمر يعاقب عليه القانون بالسجن، لكنه قال وكأنه يبت في الأمر: لن تستفيد شيئاً

من شكواك، وسأعطي خمسمئة ورقة لأي جهة تراجعها. قلت لك تستطيع أن تمر ساعة تريد، وغيرك لا يمر. فوز ربيع بتلك الجائزة وشراؤه لتلك الأرض وبدء البناء فوقها والكلاب التي اشتراها كلفني الكثير من الوقت لاستخراج الأوراق اللازمة لفتح الطريق، فمديرية الناحية قالت إنها تريد كشفاً من البلدية. والبلدية قالت هذه الأرض خارج حدودها الإدارية وتحتاج إلى أمر من المحافظة، وحينما جاءهم الأمر واتخذ القرار بفتح الطريق كان يلزمه التصديق من الوزارة. وهكذا وقعت في دوامة الأوراق ولم أدرِ الحال التي وصل إليها غريمي وخصمي وابن عمي ربيع، فقد كانت ثروته تتناقص في كل يوم نتيجة سهره في المدينة وتبذيره للمال من دون حدود ما اضطره أخيراً إلى بيع الأرض التي اشتراها ومعها البناء وكلبي الحراسة بأقل الأثمان، فتلك الأرض كانت بعيدة عن البلدة وما من أحد يرغب في السكن هناك وحده بعيداً عن الناس، ولذلك كان سعرها مع البناء متدنياً على عكس ما اشتراها.

آخر مرة رأيته فيها كانت وأنا أراجع إحدى الدوائر في العاصمة حيث كان يجلس على درج بناية مجاورة علمت أنه قد أصبح

يعمل ناطوراً لها، وعندما رآني هب واقفاً وقال: «أهلاً وسهلاً بابن العم، تفضل الطريق مفتوحة لك ولغيرك». ويومها عرفت أن الرجل لم يطق الابتعاد عن طبقته طويلاً، فهي حنونة وتحب الذين ينتمون إليها بكلّ صدق وإخلاص.

* * *

فتحت عينيها وحاولت النهوض، لكنها لم تستطع.

شعرت بإعياء شديد وخدر يسري في أوصالها، كانت الشمس تضرب نافذتها، عجبت من نفسها كيف نامت كلّ تلك المدة؟ تذكرت مساء الأمس حينما دق بابها، كانت ترتدي ثوباً يظهر مفاتن جسدها، وقد رفعت صوت جهاز التلفاز لترقص فرحة على أنغام أغنية محببة إليها.

سألت: من؟

فأجابها: «رشراش».

- من «رشراش»؟

- ابن عم هاجم.

تعرف هاجم جيداً ذلك الرجل الذي كان يجيءُ إليها من البادية، والذي يغدق عليها العطاء طوال مدة إقامته في المدينة، إذاً فالخير وفيرٌ وقادم إليها، ولا بدَّ أن يكون هذا «الرشراش»

الواقف على بابها الآن شبيهاً بابن عمه هاجم، هكذا هجست في نفسها.

خففت من صوت جهاز التلفاز الذي رقصت على موسيقا أغانيه وأعادت السؤال ثانية بغنج، فأجابها بالنبرة ذاتها. تقدمت بخطوات مديدة تتمايل بدلال نحو الباب، نظرت من ثقبه السحري، فرأت رجلاً فارع الطول، يغطي رأسه الكبير «بالشماخ» وكرشه المنفوخة تكاد أن تخترق «قلابيته» تأكدت أنه من جماعة هاجم، أو ربما يكون حقيقة من أقاربه. رأت أنه يكاد أن يسقط على الأرض من ثقل الأغراض التي كان يحملها.

ما زال الخدر يسيطر على جسدها حتى اللحظة، وما زالت ظلال الأمس تتداعى في مخيلتها. هي تذكر جيداً بأنه وعندما فتحت له الباب قد ألقى عليها تحية سريعة، ثم هجم بجسده السمين نحو الداخل، ليضع ما يحمله من أغراض وهدايا في الصالون. انتصب بعدها ونظر إليها بإعجاب، وهو يقول وكأنه يعرفها منذ سنوات، أو كأن بينهما عشرة طويلة وعلاقة لا يمكن لها أن تزول أو تمحوها الأيام: غادة. اتبعيني.

وتبعته غادة إلى حيث ركن سيارته «البيك آب» الكبيرة قريباً من باب دارها. ومن هناك نقلت معه بقية الأغراض إلى داخل المنزل حيث شعرت أنه لم يترك شيئاً إلا وجلبه معه. خضار، وفواكه، وجبن، ولحوم مشوية، وعصائر متنوعة. لدرجة حسبت أن هذا الرجل «الرشراش» كما عرفها على نفسه قد جلب معه نصف سوق المدينة، هو لم ينسّ حتى الملابس الداخلية، وملابس الخروج، والتي ضمت عدداً من التنانير، وبناطيل الجينز، والقماش، والفساتين بموديلاتها المختلفة، والغريب أن هذه الملابس كانت على القياس المطلوب. عندها قالت في نفسها: أين هاجم وما يقدمه لي حين يحضر من هذا الكرم الحاتمي الباهر؟.

كان «رشراش» في الثلاثين من عمره يرتدي زيه البدوي بشاربين كثين، قوي البنية، شعرت باندفاعه وهوجه عندما انتهى من نقل الأغراض حيث رمى نفسه على الأريكة والعرق يتصبب من جبينه. وكلما نظر إليها كان ينبهر ويصعق بجمالها، فيتلعثم لسانه ولا يعرف ماذا يقول.

تذكر أنه حين دخل الحمام مساء البارحة ليغتسل من عرق الطريق ووعثاء السفر، أنها تحدثت بهمس على الهاتف مع صديقتها

محاسن عن بدوي أبله فيه مس من الجنون زار منزلها هذا المساء، وجلب معه الكثير من الهدايا، وحينما أنهت مكالمتها راحت تعد طاولة الطعام حيث وضعت عليها أصنافاً متنوعة من المأكولات أهمها اللحم المشوي، والشراب. عندها خرج من حمامه. كان قد استبدل «قلابيته» بأخرى نظيفة وجديدة، وكان رجلاً آخر غير ذلك الذي دخل قبل قليل، وكأنه غسل خجله مع غبرة السفر وعجاج الدرب حيث راح يصفق ويغني:

«الليلة رح نسهر يا غادة

الليلة رح نسهر».

تمايلت طرباً مع أغنيته التي لا نغم فيها ولا وزن، لكنها أحبت أن تسايره وتماشيه في ذلك، وحين رمت بنفسها على الكنبة رمى بنفسه على الكنبة المجاورة، نهض وكأنه تذكر فجأة جوعه، أمسك بيدها وطلب منها أن تجلس إلى جانبه، تبادلا بعض اللقم، ثم اكتفى بذلك، وراح يحتسي شرابه المفضل، بينما تابعت هي طعامها، وقد اختارت شراباً غير شرابه حيث عرفت من حديثه أشياء كثيرة تخصه أهمها بالنسبة لها أنه قد باع هذا اليوم

مئة رأس من الغنم في سوق المدينة. تأكدت من ذلك حين مدّ يده إلى جيب داخلي وأخرج رزمة من النقود وضعها معتذراً عن تقصيره في حضنها، لم تعرف لحظتها كيف تشكره، لكنه مدّ يده إلى جيب آخر وأخرج منه أسواراً ذهبياً باهظ الثمن وضعه في يدها فكان على القياس.

كادت تطير فرحاً من مكانها، والدهشة تملأ كيانها، عندها ربت على كتفها وقال: أريد أن أرى رقصك يا غادة.

لبت طلبه على الفور. ضغطت على زر آلة التسجيل، فانطلقت منها موسيقا صاخبة. رقصت أمامه بجسدها الممشوق الفاتن، فتمنى لو أنه يذوب وجداً في رقة خصرها الناحل.

نهض من مكانه. مشى محاولاً أن يجاريها. ترنح في مكانه، وهبط إلى الأرض، وعلى أربع بذل جهده كي يدور حولها، لكنه لم يستطع، فغط في نومه. أطفأت غادة آلة التسجيل، وحاولت إيقاظه، لكنه رفض ذلك، بل رمى لها رزمة جديدة من النقود، وطلب منها أن تضع على جسده أي غطاء خفيف فهو متعب جداً ولن يستطيع من مكانه حراكاً.

ضحكت من كلّ قلبها على تصرفه الذي يشبه تصرفات الصغار حين يحلّ عليهم النعاس، وعادت إلى طعامها وشرابها الموضوع على الطاولة. كانت سعيدة ومستمتعة إلى أبعد الحدود، فهذا أغرب رجل يمرّ في حياتها.

دق جرس الهاتف، فردت على صديقتها محاسن التي اتصلت لتطمئن عنها فأخبرتها مقهقهة عن «رشراش» الذي داخ رأسه قبل أن يكمل كأس الشراب الأولى. أغلقت سماعة هاتفها على صوت شخيره الذي بدأ يتعالى، شعرت أنها غير قادرة على الوصول إلى غرفة نومها لتتمدد فوق سريرها، فنامت على الكرسي مقابل الهاتف.

نعم هي تذكر ذلك الذي حدث ليلة البارحة، ولكن ما الذي جاء بها لتنام فوق بلاطات صالونها؟ أرعبها السؤال، فظنت نفسها مستغرقة في حلم عميق، لكنها لم تكن كذلك، تأكدت من ذلك من البرودة المتسربة إلى جسدها أثناء نومها والتي جعلت ظهرها يابساً كأنه قطعة من الحطب. انقلبت إلى جهة أخرى غير التي كانت عليها. لم تسمع صوت خشخشة مصاغها الذهبي كما العادة، نظرت مذهولة إلى يدها اليمنى ومن ثم إلى يدها

اليسرى. تلمست رقبتها. لم تجد طوقها الذي كان معلقاً فيها. لم يكن في حوزتها أي مصاغ ذهبي.

زحفت منهكة إلى الهاتف الموضوع على الأرض في زاوية الصالون حيث سمعته، وهو يسألها بلهجته البدوية: «بعدك نايمة يا الغالية؟».

عرفت صوته فقالت مستغربة: «رشراش! أين أنت؟ لماذا تحدثني على الهاتف»؟

ضحك طويلاً وأجاب: «أني صرت بالديرة يا الغالية».

نهضت كالملسوعة من خدرها، تتفقد نقودها ومصاغها وأدوات زينتها.

فاجأها الفراغ، لقد كان بيتها خالياً من كلّ شيء، لم يبقّ فيه سوى قطعة من جريدة نامت فوقها، وهذا الهاتف الذي أبقاه ليتصل بها ويسخر من سذاجتها، لقد حمل «رشراش» في سياراته البيك آب التي ركنها بالأمس قرب باب المنزل كلّ شيء، حمل حتى الهدايا وبقايا الطعام التي جلبها أمس.

* * *

«بس ولعونا ومشوا، حق عرفناهم. تشعل ولا تنطفي نيران فرقاهم»

انتبهت فجأة وأنا أردد كلمات تلك الأغنية والدموع تتهاطل من عيني، أنني أجلس وحيداً في حافلة نزل منها الجميع.

كنت شارداً لا أدري هل لوحت لي تلك المرأة قبل أن تغادر تلك الحافلة؟ هل قالت كلمة وداع واحدة، أم أنها قد مضت مثل غيرها من الركاب بعد أن شلعت قلبي من مكانه؟.

قلت حين رأيتها أول مرة: تشبهين صديقتي الأردنية.

فردت من فورها: أنت تشبه وجه صديقي اللبناني.

ووجدتني أسأل نفسي: لماذا تخفينا يومها خلف أربعة وجوه، ولم نقل كلماتنا بكلّ وضوح وصراحة؟.

أسأل الآن وليس من مجيب عن سؤالي سوى جسدي الذابل ووجهي المرهق من صدمة الحبّ بعد أن أصبح القلب ذاوياً داسته السنين بعجلاتها من دون رحمة.

لحظات مرت وقلبي جريح ومكسور الخاطر عليكِ يا أيتها التي لا أعرف اسمها ولا عنوانها. هأنا أعود خالي الوفاض. لم يبق منكِ بين يدي سوى عدد من الصور...

هأنذا أقلبها بحزن على شاشة جهازي المحمول، فيشعلها وجهك البهي. فآه منه ذلك الذي أضناني الشوق إليه بعد أن غدا مساراً عليّ أن أكابده طوال ثواني العمر المتبقية والمنتظرة كي تكون شهداً تذوب حلاوته في جوانحي كلّها، وتطرق أنحاء روحي الهائمة بروعتك.

من جديد باغتني السؤال: امرأةٌ وعشقٌ جديدٌ! ماذا دهاكَ يا رجلُ؟ هي مجرد مصادفة في حافلة، وبضعة حوارات دافئة حطّ بعدها شعرها على ذراعيك فحضر معه الجوري والنعناع والياسمين وبدت كأن الدنيا تكتمل بحضورها في تلك اللحظات.

- تقول لحظات وتعيدها دائماً.

- لأن السعادة يا حبيبي لا تتأتى لنا سوى لحظات نتذكرها ونعيش عليها رداً على ظلم الحياة وسنوات العمر المقهورة رغماً عنا.

- كلامك فيه منطق...

تضع يدك على فمك وتغلقها كي لا تكمل العبارة، تشعر نفسك وقد انشطرت إلى نصفين. نصف يريد تركك والذهاب للبحث عنها، ونصف يبتهل ويدعو كي تعود وتراها ولو لمرة واحدة في حياتك.

أقول زاجراً نفسي كي تنهي حوار الذات المنقسمة بين وبين: دعك من هذا، لقد أخذك حبها بغتة، جاءك كما لو أنه الصباح لتغدو من بعده ذبالة شوق تبددت معه حروفك فغدت وكأن رياحاً قد ذرتها كلّ إلى اتجاه.

أذكر أنني وحين نزلنا في تلك المحطة قد خطرت في بالي فكرة مجنونة وذلك أن أصعد مجدداً إلى الحافلة وأمام مرأى الناس أضمها إلى صدري، وأبكي عليه طويلاً وذلك لأن شعوراً قد خالجني بأنني لن أراها ثانية، ولكنني لم أفعل وبقيت مع ندمي الذي يرافقني في هذه اللحظات التي امتدت عمراً أو يزيد، بدأت معها أوراقي بالاصفرار والتساقط.

لم أنسها يوماً وطالما تخيلت أنها ستنزل من حافلة ما لتلقاني في تلك المحطة التي افترقنا عندها، على رصيف، أو في أحد

الشوارع التي أحب التسكع فيها، لأضمها إلى صدري، ترتعش أصابعي وهي تلامس أصابعها. أقبلُ يديها فرحاً بذلك اللقاء، فتسري في جسدي قشعريرة افتقدتها طويلاً وتعود إليه الدماء من جديد. لكن هذا لم يحصل، عندئذ أيقنت أن الشقة قد بعدت بيننا والزمن استطال، ثم زاد يقيني بخفوت الأمل أننا لم نتبادل أرقام الهواتف يومها، عندها قلت لائماً نفسي: يا لغبائي المستفحل، هل ثمة رجل يبحث عن امرأة لا يعرف عنوانها ولا هاتفها سواك أيها المجنون؟

أذكر أنني كنت أجلس صافناً أتلمس قلبي الذي عارك طول الليالي المارقة فوق سجل العمر، وقد ضكتني بعسرها وضنكها، وحين حضر طيفها وسمعت الصوت تغير الحال بشكل مفاجئ، ليزداد نبضي نبضاً، ورأسي الذي جسه الشيب انقلب سواداً. لم أسأل من أين لها بالرقم، ولا أين كانت طوال تلك المدة؟ وماذا شغلها عني؟ فتلك أسئلة هامشية لا مجال لها. حين جاء صوتها بعد انتظار قاتل ومقيت كاد القلب يطير من مطرحه، فحسبته يضيء أملاً جديداً في داخلي، لينتشلني من ركام الأحزان المتجمعة في الأمكنة كلّها ، ويمازج فرحة روحي التي التقطته وهي تشهق

عبر أسلاكها. كان وشوشة، وزقزقة عصافير، وغناء بلابل رقصت له نفسي، وطربت له أذناي التي لم أسمع بهما صوت أنسي شهوراً طويلة حداداً على فراقها، حيث ابتدأ كأنه عزف على أوتار قلبي، يدق بواباته، ويلامس شغافه، وكنت أرتعش أمام عظمة هذا الصوت.

- يا إلهي يا خالق وصانع كلّ شيء، هل ثمة صوت أجمل من صوتها؟

يومها لم أكن أريد أن أنطق بأي حرف. كنت أريد أن أترنم مع اللحن فقط لولا خافقي اللعين الذي رد متلعثماً وقال رغماً عني: ألو.

* * *

عبود الداشر

عبود الساري لم تعد كنيته كذلك، فقد حذفناها من قاموس حياتنا ومن ذاكرتنا الشقية أيام «الولدنة» لتحل بدلاً منها كنية الداشر نظراً لشقاوته وأعماله التي يقوم بها، فهو شرير بالمعنى الحرفي لأيام طفولتنا التي كانت على أبواب النهاية، لندخل بعدها مرحلة الفتوة والشباب، حين طرت على وجوهنا بعض الشعيرات المتباعدة، ومثل خيطان رفيعة سوداء وشقراء بدت شواربنا التي كنا نتعجل كي نستنبتها بسرعة، وتصير هوية لنا لندخل من خلالها عالم «الشبوبية» التي نجهل ما فيها من أسرار.

أيامها كان الداشر عبود لا يتوانى عن الاعتداء على أي منا، وكنا نحن الذين نصغره سناً تحت سطوته وهيمنته المطلقة. يأمرنا أن نسرح الغنم في المراعي، ونوردها إلى عين الماء، فنفعل ذلك طوعاً أو كراهية، كان راعياً كبيراً ونحن الرعاة الصغار الذين نقوم على خدمته، نصنع له الطعام والشاي في تلك البراري، وكل ما كان يفعله حين نؤوب إلى القرية في المساء هو

إيصال تلك الماشية إلى أصحابها، ولا ينسى قبل أن نتوادع أن يوصي كلّ واحد منا أن يأتي باكراً مع شويهاته القليلة إلى المرعى، كان يسمح لأغنامنا أن تخالط قطيعه الكبير الذي يتولى رعايته، فهو يعرف أن ذلك يصب في مصلحته، وفي النهار كان يطلب منا أن نحلب له بعض الأغنام، ونغلي حليبها على النار ليشرب منها ويسقينا من بعده، وحين يجيء على باله الجبن يخرج من جيبه حبة «الدورة» ويضعها في وعاء الحليب، ثم يطلب منا أن نضع أرديتنا فوق الغطاء، ليتحول الحليب بعد وقت قليل إلى جبن، وفي الأوقات التي يشعر فيها بالملل كان غالباً ما يثير بيننا الخلافات مما يؤدي إلى نشوب شجار لا ينتهي إلا بتدخله بعد أن نكون قد أدمينا بعضنا، وبان قشط الأظافر على وجوهنا.

هو لم يكن يكتفي بنا في تسليته، بل يحرض الكلاب على بعضها، ليستمتع في شجارها، ويضع الدبس الحار أو «الفليفلة» الحادة على مؤخرات المواشي التي تشذ عن القطيع، حيث نراه يضحك بصوت مرتفع وهي تعود مذعنة إلى القطيع ومشغولة في محاولات الحك الذي لا ينتهي طوال اليوم.

كثيراً ما كنا نشكوه لأهلنا، ونذكر أفعاله وظلمه لنا، لكنه كان يهرب بسرعة غزال في تلك الأمداء الشاسعة، وحين يعودون إلى المنازل في القرية بعد أن يتعبوا من مطاردته، يعود ليعاقب من شكاه منا.

غالباً ما كان يعمل فينا المقالب ليلاً، وذلك عندما يتلطى في الدروب المعتمة، ويخرج لنا بشكل مفاجئ مصدراً أصواتاً مبهمة وغريبة، مرتدياً الأبيض، أو الأسود، فنحسبه جان قد خرج لنا من تحت الأرض كما كان يصور لنا خيالنا الطفولي آنذاك، عندها تنخلع قلوبنا من أمكنتها، فنجري مولين الأدبار إلى المنازل، يفعل ذلك معنا حتى لا نخرج للعب قريباً من بيوتنا، لأنه على الغالب يخطط لغزو أشجار الرمان ودوالي العنب داخل تلك الحواكير المسيجة بالحجارة.

في أيام الشتاء كان يذبح خروفاً مرة في كلّ أسبوع تقريباً، يشويه على النار، يأكل منه حتى يصل إلى التخمة، ثم يفرق الباقي علينا وعلى الكلاب التي ترافقه في حراسة القطيع. في تلك الفترة من السنة لم يكن يخاف من سؤال أصحاب الماشية عن نقص بعض الخراف، فقد كان الجواب حاضراً عنده، حيث

البرد يمكن أن يتسبب في موتها، وكذلك بعض الأعشاب السامة التي تنبت في بداية ذلك الفصل.

كان عبود الداشر، داشراً بالفعل. يعيش في كنف عمه العجوز بعد مغادرة والده هذه الدنيا، وزواج والدته خارج القرية، كان مطيعاً لعمه العجوز في الأعمال التي يطلبها منه، لكنه لم يكن قادراً على ضبط تصرفاته كلّها والسيطرة عليه بشكل كامل، فهو يلوذ بالفرار كعادته إذا ما اضطره الأمر لذلك.

فجأة تغير عبود، وحل عليه شيء طارئ لم نعرف كنهه، حيث تحول إلى ذلك الشاب الهادئ الذي يحاول ألا يؤذي نملة، يوبخنا ويفصل بيننا وقت التنازع والشجار، ويفضل الانعزال والجلوس وحيداً شارداً في فضاء تلك البراري، وقد ينتقي صخرة مرتفعة يجلس عليها ويعزف على شبابته أنغاماً شادية وحزينة. اللافت أنه قد جلب عدة حلاقة ومرآة وكريمات تجميل كان يضعها في الخرج الموضوع على ظهر الحمار الذي يتبعه «المرياع» وباقي قطيع الغنم، وكثيراً ما شاهدناه يخرج تلك العدة من الخرج ليحلق ذقنه وشاربيه ويدهن وجهه بتلك «المطريات» ثم يمشط شعره الطويل والناعم وهو يحدق في تلك المرآة ناظراً لنفسه بكل زهو وإعجاب.

لم يعد عبود يسمح لنا أن نورد أغنامه إلى العين، بل صار يفعل ذلك بنفسه ومن دون أن يرافقه أحد منا، ومع الأيام صرنا نشتاق لتصرفاته القديمة، لكنه لم يعد إليها أبداً، وقد غدت سيرته الحسنة هي الغالبة، مسحت من أذهان أهل القرية أفعاله القديمة، وليصير سلوكه اللطيف والمهذب على كل لسان، وفي يوم ما دفعنا الفضول، لنراقب عبود خلسة من بين تلك الصخور المطلة على عين الماء، وقد فوجئنا حين رأيناه جاثياً أمام ريم ابنة صاحب الغنم، وهو يقبل يديها وينظر إليها بشوق ولهفة، وكانت صامتة تبادله تلك النظرات، لحظتها فقط أدركنا أن عبود الداشر، لم يعد داشراً، بل صار عبود العاشق.

* * *

هوازن

يا قبيلة من النساء

يا لهذه المرأة التي تسكن وتقيم في أعماق روحك، فجأة طار قلبك إليها من دون أن تكون قد حضرت لذلك سابقاً، فجأة صار الحنين اشتعالاً، ناراً تحرق ما بين الضلوع.

هوازن!

كأن اسمها قد خطر على بالك بغتة، أو ربما أنك لم تعد تذكر سواها من نساء تلك المدينة التي تغفو منذ وقت غير قليل على صوت القذائف القادمة إليها من جهات كثيرة.

عبرت لها مرة عن قلقي من ذلك الأمر، فقالت وكأنها تدخل الطمأنينة إلى قلبي: تعودنا على ذلك. ثم رسمت ابتسامة قدتها من رحم الوجع، وراحت تتلهى كي لا تكمل إجابتها بأشياء أخرى.

ويومها قلت في نفسي: إذا كانت تلك المرأة قد سميت على اسم قبيلة عربية، فتلك وحدها قبيلة من النساء اللواتي لم يخلق مثلهن سوى في بلادنا، فهن الصابرات على الجراحات والراسخات الناهضات مثل كلّ الجبال والهضاب، وهن اتساعاً وامتداداً مثل تلك السهول بخضرتها وجمالها، والنسائم التي تهب على أرواحنا منها.

هوازن! ما الذي ذكرك بها الآن يا رجل؟ هكذا سألت نفسك وأنت قد أمضيت بعضاً من هذا الصباح مع عمار، وتعرج بكما الحديث إلى مطارح كثيرة، ولم تأتيا على سيرتها، ثم أكدت له جازماً أنك لن تستطيع الذهاب معه إلى المنزل، لأنك تركت من خلفك أشغالاً كثيرة، ولا بدَّ أن تسافر الآن من أجل أن تعود إليها، فهل مكر بك حين تركك على راحتك ومضى؟.

الوقت عصيب ويركض متجاوزاً الظهيرة، فخذ قرارك، وشرق في سفرك قبل أن تنقطع الحافلات عن جريانها.

لكن صوتها الذي حادثك قبل قليل وسكن أعماقك، هيض أوجاعك الدامسة حيث نز من عينيك شيء ندي بلل روحك

قبل جفنيك، فغدوت طفلاً ممزقاً تتناهبه الحيرة لا يدري ماذا يفعل معها. وسألت نفسك مجدداً مالك يا رجل منذ تدفق صوتها إليك مثل ماء رقراق طفحت روحك وغصت لأرض هجرت منها رغماً عنك؟ ومن دون شعور منك وجدت خطواتك تغرب صوب الضاحية حيث حسم قلبي معركته، وانتصر على الآخر مني حين قال: هوازن هي أهلك، أو من تبقى منهم في هذه الحرب المجنونة.

كنت أتمنى في تلك اللحظات لو أن ساقي يعودان مثلما أيام زمان، لو أن لي جناحين أطير بهما وأحلق عالياً، لكن لو لا تنفع مع شظية الحديد المنزرعة في ساقي، والتي جعلتني هرماً يتكئ على أعصابه متوسلاً دربه أن يكون قصيراً.

طلبت من سائق السيارة أن يفتح النوافذ كي لا يجهز الحزن على قلبي، ورحت أرقب جانبي الطريق والخضرة المحيطة بهما والتي تمنيت أن أقضي القليل من الوقت وأنا أجلس فوقها، وعندها ندت مني كلمة تعجب رافقت تأوهي وحسرتي، وكأنني أحضر إلى المكان لأول مرة.

قال السائق: منذ متى لم تأت إلى هنا؟

قلت: منذ كثير من البعد والعذاب والأشواق الكامنة بين ضلوعي.

ثم صمت وصمت.

وحين نزلت ورفعت بصري نحو الأعلى رأيتها كما عادتها تقف على الشرفة، وجه مشرق ومدور، وقامة ممشوقة، وابتسامة لا تفارقها، من قال إن الملائكة لا تهبط على الأرض وتقف على شرفة منزل؟ من قال إن عشتار قد غادرت مواسم الخصب دونما رجعة؟ من قال ذلك فقد أخطأ كثيراً. إلى جانبها كان يقف صديقي عمار وفي عينه ابتسامة شماتة نصره التي لا تخفى عليّ.

رحبت بي، ولوحت من بعيد، فنكست نظري إلى الأسفل وقد فر الدمع من عيني، ثم صعدت الدرج وأنا أمسح ما نز منهما حيث سحت باقي الدموع نحو داخلي لتحوله إلى مرجل لا يتوقف عن الغليان.

فتح الباب، فسبقها إليّ ولديها زين ولبانة، وحينما عانقتهما شعرت أنني قد استعدت بلادنا كلّها، وحين تقدمت منها

وقبلت رأسها أحسست أن روحي قد ردت إليّ ثانية، وقف عمار مثل مارد بطوله الفارع، وسمرته المحببة يشير لي بثقة كي أجلس في صدر المكان، كان في تلك اللحظة مثل قائد انتهى من تنفيذ ما يريد بعد أن خاض معركته وبالشروط التي يريدها، وكانت رائحة الطبخ تشير إلى أن كلّ شيء قد انتهى وحسم منذ الصباح، فقد كانت هوازن متأكدة بأنني سأحضر، ولم يساورها أيّ شك في ذلك.

ويا لحلاوة الأهل وما أجمل اللقاء معهم بعد غياب، حيث يصبح للقهوة طعم آخر، وللطعام مذاق خاص، وللحديث نغم وسحر، تستحضر معه الذكريات ويمرّ الوقت متعجلاً نحاول أن نقبض عليه من دون جدوى، فلا نسلم أنفسنا للنعاس إلا قهراً ورغماً عنا، ولكم كنت أرجوه في ليلتنا تلك أن يتمهل قليلاً كي نستكمل بوحنا ونبث الأشواق التي لا تتوقف ولا تنتهي عند حد فما أبهاها وما أروع أصدقائي زين ولبانة وعمار وهوازن الذين سهرت معهم تلك الليلة، وحين أيقظتني

هوازن صباحاً كما أوصيتها ورائحة القهوة تفوح عطراً بين يديها كان وجهها المدور كالقمر يرسم ابتسامة مالها من شبيه، عندها سحت الدمعات على وجنتي من جديد، ففي ذلك الصباح كان عليّ أن أفارق عائلتي مرة أخرى.

* * *

لم أصدق أنه سيفعل بي ذلك.

اقترب مني متحدياً حتى غدا على بعد خطوتين، أو أقل.

- أنت خائنة.

- لست خائنة، أنني جسد وروح ورغبة، ووالدك تركني أرضاً بوراً لم يستصلح سوى أطرافها.

توهمت أنني رددت عليه بذلك الكلام، واكتشفت وأنا أزدرد لعابي بصعوبة بالغة أنني لم أقل شيئاً، وهو يصوب سلاحه نحوي.

لم ينطق سوى بكلمتين، اقترب مني أكثر وعيناه تتقادحان شرراً. حاولت الاحتماء بالرجل الجالس إلى جانبي، لكنه تجمد في مكانه كأن الخوف قد سحب لسانه. شعرت أنه قد أصبح مجرد جثة هامدة لا تصدر سوى أنفاس متقطعة.

رأيته حين أطلقها، وخلت نفسي رأيتها أيضاً.

من قال إن الرصاصة التي تقتلك، لن تراها ولن تسمع صوتها، فهو مخطئ على ما أعتقد.

لا أدري لماذا ساورني شعور بالخوف عليه. أردت أن أقول له: تمهل يا ولدي، وودت لو أنه يخفف من ركضه وهروبه ذاك، كي لا يتعثر ويسقط.

يا ولدي! كلمة يمكن أن أتوقف عندها كثيراً، وطويلاً.

كان يمكن أن يكون ولدي، أو في مقامه على الأقل. لو أنني...

- لو أنني ماذا؟.

- لو أنني كنت في مقام أمه.

- ولكنني لم أكن.

- لا وقت للجدال الآن.

- نعم، لا وقت.

ها هو يركض أمامي، يقطع النهر إلى الضفة الأخرى. هو الآن في طريق، وأنا في طريق آخر.

لا أدري هل حدث ذلك في وقت سابق؟ أم أنه يحدث معي الآن وفي هذه اللحظة بالذات؟ وعلى ما أذكره أنني قد قطعت النهر من الضفة التي هرب إليها. جئت إلى هنا من أجل الحصول على عمل في هذا المطعم الذي صار ملكي فيما بعد.

لا أدري لماذا أخاف عليه؟ وأنا أراه يركض أمامي مرتبكاً، قلقاً خائفاً، وكأن الأفكار تضيع منه لا يعرف ماذا يفعل، وقد أضاع معها ملامح الطريق، أو أن الأماكن هربت من ذهنه، ولا مكان يأويه بعد هذه اللحظة.

ندهت لم يسمع ندائي، وتلاشي صوتي في ذلك الفضاء الرحب الذي صعدت إليه، ربما شعرت بالندم نحو ذلك الطفل الذي صار شاباً، علمته الحياة أن يكون قاسياً، أكثر من قسوتها.

لماذا يركض يا ترى؟ هل قتلني وولى هارباً؟ أم ما زال ينتظر؟

بصراحة أنا من كان مع قسوة الحياة عليه، وحين تعرفت إليه، وهو برفقة والده أول مرة، تظاهرت بالشفقة على ذلك الولد الذي داهمه اليتم مبكراً، فرحت ألاعبه وأمازحه، وأحنو

عليه، حتى تعلق بي وأحبني، وهذا ما ساعدني كثيراً على التقرب من والده الذي كان في تلك الآونة يعيش ألم الترمل وفقد زوجته وحبيبته، وقد رآني في تلك الفترة أماً حنونة وبديلة لأم ذلك الطفل، وكنت في عز الصبا والجمال، فوقع ذلك الرجل تحت سطوة جمالي وهيمنته، لا لم يقع، بل استمتع بحسدي إلى حين، وقد كنت بنتاً تطاول في قامتها الرمح، مع خصر أهيف، وعينين عسليتين.

أقول كنت، لأنني الآن وفي هذه اللحظة بالذات لم أعد كما كنت.

حينما دخلت منزل ذلك الرجل، اختلفت نظرتي لذاك الطفل، لم أعد أطيق رؤيته، وتولد في قلبي حقد فظيع عليه، فهو ابن تلك المرأة التي أحبها زوجي، لذلك صببت جام غضبي عليه، وصرت أضربه وأعاقبه بشكل مستمر، ومن شدة ضربي له كنت أحسبه في بعض الأحيان سيموت بين يدي، هاهو الآن وبضربة واحدة ينتقم من كلّ ذلك الماضي وعذاب الأوقات التي قضاها معاقباً.

عندما كان والده يعود من العمل كنت أشكو له من شقاوة ابنه وأفعاله الذميمة التي لم يفعلها، موضحة ذلك بالبراهين والأدلة.

في البداية كان يناقشني في بعض الأمور، ويسأل ابنه عن الأسباب التي دفعته لهذا الفعل، أو ذاك، ثم فيما بعد سلم لي كلّ شيء، ولم يعد يراجعني في أمره، فازددت ضراوة وشراسة في تعاملي معه.

ذاك الولد كما بقيت أظنه، كبر من دون أن أتنبه لذلك، وكثيراً ما صار يمر من أمامي مستعرضاً فتوته وعضلاته، وفي أحد الأيام انتظر حتى خلعت ملابسي ودخلت الحمام. عندها فتحه ورمى إلى داخله بفأرة كبيرة، لا أعرف من أين جاء بها، ولا كيف اصطادها مثل قط ماهر. حيث أغلق باب الحمام من الخارج وتركني أدور كما تدور، ثم أصرخ وأولول وأبكي، وأنادي عليه مستجدية كي يخرجني من ذلك المأزق.

لم يستجب اللعين لتوسلاتي. كان يعلم شدة خوفي من الفئران، وكان يضحك شامتاً بما يحدث لي، معلناً بذلك انتصاراً

لم يتحقق له من قبل على من كانت سبباً في قتل والدته كما يعتقد، وعكرت صفو حياته حين تزوجت من والده.

بح صوتي يومها، حتى أخذتني الدوخة، ورحت أفقدُ الوعي شيئاً فشيئاً، وكان يمكن أن أقضي نحبي لولا وصول والده الذي رأى بعينه فعلة ابنه معي، حيث استشاط غضبه، ولم يشفِ ضربه غليله، فسلمه للشرطة بتهمة محاولة قتلي، وقضيت أنا عدة أيام في المشفى.

لم نره بعد تلك الحادثة. قيل لنا إنه قضى في السجن وقتاً غير قليل، وقد سافر بعد انقضاء تلك المدة إلى خارج البلاد، وقيل لنا إنه سجن ثانية، ثم سمعنا تكذيباً لذلك، وأن ذلك مجرد إشاعة، فهو يعمل في أحد فنادق المدينة، ويحصل على دخل جيد، ومع مرور الوقت انقطعت أخباره عنا نهائياً، ولم يعد أحد من معارفنا يأتي على ذكره.

شغلت في الفترة الماضية بوالده، أو زوجي الذي ترهل جسده، وحلّ عليه المرض بشكل مفاجئ، لكنه قبل أن يرحل، ويغادر هذا العالم إلى الأبد أعطاني حرية التصرف في كلّ أملاكه.

أقول يرحل، وهأنا ذي كما أعتقد أفعل مثلما فعل، وأقول أملاكه، ولم يعد لي منها شيء. فحين نبز ذلك الولد أمامي، وكأن الأرض قد انشقت وأخرجته، انتهت الأمور إلى غير ما أحب وأشتهي.

في البداية مشى الخوف في أعصابي. سرى مثل قشعريرة في كلّ أنحاء روحي. ربما شعر بخوفي ونبضي الذي ازداد تسارعاً، فأراد أن يستمتع بذلك، وينتشي.

كان الولد يحدق في وجهي بعينين متحديتين. كأن صوتاً يلح عليه كي يضغط على الزناد، ويفجر ما في داخله من قهر.

خاف كثيراً، حين رأى الدم ينبثق من رأسي. طار، كما طرت. هل رأى ذلك حقاً؟ أم تراه خاف من صورة مرسومة في خياله منذ زمن، وقد خطط لها كثيراً قبل تلك اللحظة؟

هأنا ذي أبتعد، وها هو يبتعد أيضاً، يصغر، ويصغر حتى بدا أمامي كأنه مجرد نقطة لا تبين، بقيت الكلمات عالقة في حلقي، ولم أقل شيئاً حين افترقنا.

فجأة شعرت أنني رميت من مكان مرتفع، وعدت للحياة من جديد، والرصاصة التي أطلقها مرت من جانب رأسي، وربما اقتلعت معها بعضاً من شعري.

شعرت روحي قد ردت لي حين أمسكت ورقته الممدودة نحوي، وبأصابع مرتجفة وقعت التنازل عن أملاك والده، وأنا أقول: شكراً لك يا ولدي، لأنك منحتني الحياة من جديد كما فعل والدك.

انتزع الورقة بعنف وهو يقول: لست أمي، ولا أتشرف بك. ثم مضى إلى الضفة الأخرى التي جئت منها.

* * *

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥

الخروج عن النَّص..... ٧

«شبوط الفرات» ١٦

محطَّات للصَّقيع من أنت يا امرأة؟ ٢١

كلب أهلكِ... و«سعدون الهارب» ٢٥

بيادق عمياء ٢٩

أحمر مريومة ٣٧

باكراً... فطوم ٤٤

رئيس دائرة وعبير ٥٠

الصفحة

رحيل إلى حدود المطر ٦١

لحظات في القمة ٦٥

لو كان هنا ٦٩

مدينة ٧٣

رجل السوق ٧٨

تعالي ٨٢

شقوق الروح ٨٦

لص صغير وعقاب ٩٠

تناثرت روحي ٩٥

وجع... وخديجةٌ على البال ٩٩

لو... والذئاب ١٠٤

لوحة لمدينة تحترق ١٠٨

يوبيل فضي وطبقة حنونة ١١٦

غادة الجميلة ١٢٢

الصفحة

عظمة الصوت ١٢٩

عبود الداشر ١٣٤

هوازن يا قبيلة من النساء ١٣٩

جاء من الضفة ذاتها ١٤٥

فهرس ١٥٣

محمد حسن الحفري

- عضو اتحاد الكتاب العرب / جمعية القصة والرواية سابقاً - جمعية المسرح حالياً أمين سر جمعية القصة والرواية سابقاً. أمين سر جمعية المسرح للعام ٢٠١٩م - ٢٠٢٠م.
- مسرحي وروائي وقاص... مواليد درعا /معرية/ ١٩٦٨م.
- ساهم في إعداد وإخراج العديد من الأعمال المسرحية.

متحصل على الجوائز التالية:

- جائزة الدولة التشجيعية للآداب للعام ٢٠١٧م.
- جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع العالمي /المركز الثالث/ في مجال الرواية للعام ٢٠١١م. وغيرها.

صدرت له الأعمال التالية:

- بين دمعتين رواية... دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة عام ٢٠٠٧م.
- العلم: رواية... دار اليمامة بحمص ٢٠١٠م وكان اسمها على حافتي الوهم حين فازت بجائزة المزرعة.

- البوح الأخير - رواية - الخرطوم ٢٠١١م.
- صندوق الذكريات - رواية - دار العراب - دمشق - ٢٠١٤م .
- جنوب القلب - رواية - مؤسسة سوريانا للإنتاج التلفزيوني والإعلامي الطبعة الأولى - دمشق - ٢٠١٦م والطبعة الثانية ٢٠١٨م.
- القرد مفاوض شاطر - مسرحية للأطفال عن وزارة الثقافة، الهيئة السورية للكتاب للعام ٢٠١١م.
- ما زال حيا مسرحية دار اليمامة بحمص عام ٢٠٠٨م.
- تداعيات الحجارة... الراقصون... مسرحيتان بيرق للخدمات الطباعية بدمشق عام ٢٠٠٤م .
- الآلهة خانت عيترون - مسرحية - مجلة الحياة المسرحية عام ٢٠١٥م.
- ديك الليلة الأخيرة - مسرحية - مجلة الحياة المسرحية عام ٢٠١٦م.
- الطريق إلى الجحيم - مسرحية - مجلة الحياة المسرحية - عام ٢٠١٨م.
- لحظة دهر... مجموعة قصصية - الهيئة السورية عام ٢٠١٦م.
- حدائق الروح - قصص - الهيئة العامة السورية للكتاب - عام ٢٠١٨م.
- الثعلب يجر ذيله خائباً - قصة للأطفال - الهيئة العامة السورية للكتاب - مديرية شؤون الطفل - للعام ٢٠١٨م.

- تراجع - قصة للأطفال - الهيئة العامة السورية للكتاب - مديرية شؤون الطفل - عام ٢٠١٨م.

- الطريق إلى البحيرة - رواية للأطفال - الهيئة العامة السورية للكتاب - مديرية شؤون الطفل - عام ٢٠١٩م.

- العجين الذي صار خبزاً - قصة للأطفال - الهيئة العامة السورية للكتاب - مديرية شؤون الطفل - عام ٢٠١٩م.

- كواكب الجنة المفقودة - رواية - الهيئة العامة السورية للكتاب - عام ٢٠١٩م.

- ذرعان - رواية دار تموز - عام ٢٠٢٠م.

- الماء المسجور - رواية للأطفال - دار تموز ٢٠٢٠م.

- الخروج من الزمن - مسرحية - اتحاد الكتاب العرب، للعام ٢٠٢١م.

- الخروج من الجنة - مسرحية - اتحاد الكتاب العرب، للعام ٢٠٢١م.

٢٠٢١م